أعظم الدعاة

تأليف

د. عبد السلام جاد بسيونى

دار المعارف
تأسست ١٨٩٠
http://gate.dar-elmarf.com

obeikandl.com

تصميم الغلاف:
شريف رضا

تنفيذ المتن والغلاف
بإدارة الجمع وفصل الألوان
دار المعارف

obeikandl.com

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج. م. ع.
هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ – فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ E-mail: maaref@idsc.net.eg
http://gate.dar-elmarf.com

تقديم بقلم

د. سالم محمود عبد الجليل

وكيل وزارة الأوقاف المصرية لشئون الدعوة

إن الحمد لله نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا من يهده الله فلا مضل له ومن يضلل فلا هادى له وأشهد أن لا إله إلاّ الله وحده لا شريك له وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وبعد:

فإن الدعوة إلى الله تعرف بأنها حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر للفوز بسعادة العاجل والآجل، كما تعرف بأنها نقل الأمة من محيطٍ إلى محيط بتبصيرها بأمور دينها ودنياها على قدر الطاقة الإنسانية ويقوم بها دعاةٌ إما باختيار الله لهم وطلبه منهم، عن طريق الوحى وهم الأنبياء والرسل عليهم الصلوات والسلام، وإما بوراثتهم فى علمهم وهديهم وذلك للعلماء.

لذا ترجع أهمية الدعوة إلى أن الله سبحانه وتعالى لم يخلق الإنس والجن إلاّ ليعبدوه وحده لا شريك له كما قال سبحانه

﴿ وَمَا خَلَقْتُ ٱلْجِنَّ وَٱلْإِنسَ إِلَّا لِيَعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾ ﴾ [الذاريات: ٥٦]
ولما كانت العبادة لا يمكن أن تعرف أحكامها على التفصيل أرسل الله الرسل عليهم الصلاة والسلام، وأنزل عليهم الكتب لبيان الأمر الذى خلق من أجله الخلق ولإيضاحه وتفصيله لهم حتى يعبدوه على بصيرةٍ فقاموا بواجبهم على النحو الأكمل عليهم الصلاة والسلام، دعاة إلى الله سبحانه وتعالى وختمهم بسيد الدعاة إلى الله محمد صلى الله عليه وسلم، فبلغ الرسالة وأدى الأمانة ونصح الأمة وجاهد فى الله حق جهاده، ودعا إلى الله سرا وجهرا ﴿ قُلْ هَٰذِهِۦ سَبِيلِىٓ أَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا۠ وَمَنِ ٱتَّبَعَنِى ۖ وَسُبْحَٰنَ ٱللَّهِ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٠٨﴾ ﴾ [يوسف: ١٠٨] وهذه طريقته ومسلكه وسنته يدعو إلى الله على بصيرة ويقين وبرهان عقلى وشرعى ولم يقتصر واجب الدعوة إلى الله على الرسل وحدهم بل جاء أتباعهم من بعدهم فشاركوهم فى الدعوة إلى الله فى كل زمانٍ ومكان، وجاء المسلمون من بعد رسول الله صلى الله عليه وسلم فحملوا أمانة تبليغ الإسلام على كاهلهم فوضحوا معالمه وبينوا أحكامه فأخذوا بأيدى المتعثرين على الطريق، قال سبحانه وتعالى ﴿ وَمَا كَانَ ٱلْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا۟ كَآفَّةً ۚ فَلَوْلَا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَآئِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا۟ فِى ٱلدِّينِ وَلِيُنذِرُوا۟ قَوْمَهُمْ إِذَا

رَجَعُوٓاْ إِلَيۡهِمۡ لَعَلَّهُمۡ يَحۡذَرُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾ [التوبة: ١٢٢]، وقال تعالى ﴿ وَلۡتَكُن مِّنكُمۡ أُمَّةٞ يَدۡعُونَ إِلَى ٱلۡخَيۡرِ وَيَأۡمُرُونَ بِٱلۡمَعۡرُوفِ وَيَنۡهَوۡنَ عَنِ ٱلۡمُنكَرِۚ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلۡمُفۡلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ ﴾ [آل عمران: ١٠٤]، فهى إذن وظيفة الأنبياء والمرسلين صلوات الله عليهم أجمعين وواجب العلماء من أتباعهم ومسئولية المؤمنين جميعا من أممهم، لذا كان العلماء منار البلاد كما قال عبدالله بن أبى جعفر: العلماء منار البلاد منهم يقتبس النور الذى يهتدى به، وقال أبو مسلم الخولانى: مثل العلماء فى الأرض مثل النجوم فى السماء إذا بدت للناس اهتدوا بها وإذا خفيت عليهم تحيروا، وقال كعب: العلماء قبلتى إذا لقيتهم وضالتى إذا لم ألقهم ولا خير فى الناس إلا بهم.

وخلو الساحة من الدعاة إلى الله المخلصين نذير بالهلاك والدمار، فعن عبد الله بن عمرو بن العاص قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: «إن الله لا يقبض العلم انتزاعا ينتزعه من العباد ولكن يقبض العلم بقبض العلماء حتى إذا لم يبق عالما اتخذ الناس رءوسا جهالا فسئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا»[1]، فالدعاة ضمان لمسيرة الخير فى المجتمع وصمام الأمان له.

(١) رواه البخاري ج١ كتاب العلم. باب كيف يقبض العلم .

والدعـوة إلى الله واجـب عام، وفريضة مسـتمرة والاضطلاع بأعبائها فى تكافل وتعاون، يجعل من العمل المشـترك استمراراً لجهاد رسل الله وإعلاء كلمة الله، ونشر دينه وإقامة حجته على النـاس وثمرتهـا: الهداية إلى الخير والتحبيـب فى عمل الخير والتنفير من الشـر والإخراج من الظلمـات إلى النور بدعوة الناس إلى دين الله وتحكيم منهجه وإفراده بالعبادة والاسـتعانة وإحقاق مـا أحق وإبطال ما أبطل وهى من أشـرف الأعمـال، قال تعالى ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

أمان الدعاة إلى الله:

لابـد للدعاة من المعرفة التامـة بالدين الذى يدعو إليه معرفة مسـتمدة من الأصول والمصادر ليكون على بينة وبصيرة، والمصدر الأول والـذى ترجـع إليـه كل القيم والموازيـن والذى حوى من حقائـق النفس والحياة والغيب ما لا غنـى عنه لدعاة الحق فى أسـلوبٍ معجز وبيان لا يأتيه الباطل من بين يديه ولا من خلفه وهـو كتـاب الله القرآن الكريم فبه نبأ مـا قبلكم وخبر ما بعدكم وحكم ما بينكم هو الفصل وليس بالهزل ﴿الٓر ۚ كِتَٰبٌ أُحْكِمَتْ ءَايَٰتُهُۥ

ثُمَّ فُصِّلَتْ مِن لَّدُنْ حَكِيمٍ خَبِيرٍ ﴾ [هود: ١]، وسنة النبى صلى الله عليه وسلم فهى من جوامع كلمه صلى الله عليه وسلم وهو وحى الله إليه، قال سبحانه ﴿ وَمَا يَنطِقُ عَنِ الْهَوَىٰ ۝٣ ﴾ [النجم: ٣]، وكان منهجه صلى الله عليه وسلم فى دعوته إلى الله: أن سلك مسلك الحجة الواضحة والحكمة والإقناع ولم يستجب لإيذاء معارضيه وقابل السيئة بالحسنة، اكتفاء بوضوح الحق فى ذاته واعتمادا على ما وهبه الله عز وجل من سر فى داخله يحمله على قبول الحق، والإذعان له على أن الحق يحمل دليله فى نفسه أمام العقل الإنسانى الذى لا يقع تحت تأثير ميل الهوى ولا ينجذب تحت شدة العصبية وعامل التحيز ويظهر هذا المنهج من خلال هذه الآيات الأتية:

قال تعالى: ﴿ قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ ۚ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي ۖ وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ ۝١٠٨ ﴾ [يوسف: ١٠٨].

وقال تعالى: ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ۝١٢٥ ﴾ [النحل: ١٢٥].

وقال تعالى: ﴿ وَلَا تُجَادِلُوا أَهْلَ الْكِتَابِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ

إِلَّا ٱلَّذِينَ ظَلَمُوا۟ مِنْهُمْ ۖ وَقُولُوٓا۟ ءَامَنَّا بِٱلَّذِىٓ أُنزِلَ إِلَيْنَا وَأُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَإِلَٰهُنَا وَإِلَٰهُكُمْ وَٰحِدٌ وَنَحْنُ لَهُۥ مُسْلِمُونَ ﴿٤٦﴾ [العنكبوت: ٤٦].

ومن خلال الآيات ترى المنهج النبوى فى الدعوة إلى الله يدور من خلال هذه المحاور:

(أ) الدعوة إلى الله بالحكمة.

(ب) الدعوة إلى الله بالموعظة الحسنة.

(جـ) الجدال بالتى هى أحسن.

(د) القوة.

أولا الدعوة بالحكمة:

كان رسول الله – صلى الله عليه وسلم – يلازم الحكمة فى جميع أموره وخاصة فى دعوته إلى الله فأقبل إليه الناس ودخلوا فى دين الله أفواجا بفضل الله ثم بفضل حكمته صلى الله عليه وسلم التى جاء فيها عن أنس بن مالك كان أبو ذر يحدث أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «فرج سقف بيتى وأنا بمكة فنزل جبريل عليه السلام ففرج صدرى ثم غسله من ماء زمزم ثم جاء بطست من ذهب ممتلئ حكمة وإيمانا فأفرغها فى صدرى

ثم أطبقه ثم أخذ بيدى فعرج بى إلى السماء.. الحديث»[1]، ومن الحديث يتبين أن الحكمة من أعظم الأمور الأساسية فى منهج الدعوة إلى الله حيث امتلأ بها صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو صاحب الدعوة مع الإيمان، كما يؤكد قيمة وأهمية الحكمة من خلال مجيئها يحملها جبريل وهو روح القدس فى طست من ذهب وهو أغلى المعادن فى مكة المكرمة وهى البقعة المباركة ليمتلئ بها صدر رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو خير الخلق، بعد غسله بماء زمزم وهو أطهر الماء وأفضله، فهذا يؤكد أن الحكمة فى الدعوة إلى الله أمرها عظيم وشأنها كبير، قال تعالى: ﴿ يُؤْتِي ٱلْحِكْمَةَ مَن يَشَآءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ ٱلْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّآ أُو۟لُوا۟ ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿٢٦٩﴾ ﴾ [البقرة: ٢٦٩]، فهى الصواب من القول ووضع الشىء فى موضعه وهى من العطايا التى منحها الله تعالى له، قال تعالى عن داود عليه السلام: ﴿ وَشَدَدْنَا مُلْكَهُۥ وَءَاتَيْنَٰهُ ٱلْحِكْمَةَ وَفَصْلَ ٱلْخِطَابِ ﴿٢٠﴾ ﴾ [ص: ٢٠]، وقال: ﴿ وَلَقَدْ ءَاتَيْنَا لُقْمَٰنَ ٱلْحِكْمَةَ أَنِ ٱشْكُرْ لِلَّهِ ۚ وَمَن يَشْكُرْ فَإِنَّمَا يَشْكُرُ لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿١٢﴾ ﴾ [لقمان: ١٢]، وقال: ﴿ فَقَدْ ءَاتَيْنَآ ءَالَ إِبْرَٰهِيمَ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ

(١) رواه البخارى

وَءَاتَيْنَٰهُم مُّلْكًا عَظِيمًا ﴿٥٤﴾ ﴾ [النساء: ٥٤]، وقال فى رسول الله صلى الله عليه وسلم ﴿ هُوَ ٱلَّذِى بَعَثَ فِى ٱلْأُمِّيِّـۧنَ رَسُولًا مِّنْهُمْ يَتْلُوا۟ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتِهِۦ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ ٱلْكِتَٰبَ وَٱلْحِكْمَةَ وَإِن كَانُوا۟ مِن قَبْلُ لَفِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢﴾ ﴾ [الجمعة: ٢]، وسار أصحاب النبى صلى الله عليه وسلم على طريقه وهديه فى الدعوة إلى الله بالحكمة فانتشر الإسلام فى عهدهم انتشارا عظيما ودخل فى الإسلام عدد لا يحصى وخلق لا يعرف عددهم إلا الله وجاء التابعون وأكملوا السير على هذا الطريق وهكذا سارت القرون الثلاثة المفضلة ومن بعدهم من أهل العلم والإيمان فأظهر الله الإسلام وأهله وأذل الشرك وأعوانه. ويظن كثير من الناس أن الحكمة تقتصر على الكلام اللين والرفق والعفو والحلم فحسب لكن هذا نقص وقصور فى فهم مفهوم الحكمة فإنها قد تكون:

باستخدام الرفق واللين والعفو مع بيان الحق علما وعملا واعتقادا بالأدلة وهذه المرتبة تستخدم لأذكياء البشر الذين يقبلون الحق ولا يعاندون.

وتارة تكون باستخدام الموعظة الحسنة المشتملة على الترغيب فى الحق والترهيب من الباطل وتستخدم هذه المرتبة مع القابل للحق المعترف به لكن عنده غفلة وشهوات وأهواء تصده عن الاتباع.

وتارة تكون باستخدام الجدال بالتى هى أحسن بحسن خلق ولطف ولين كلام ودعوة إلى الحق وتحسينه بالأدلة العقلية والنقلية ورد الباطل بأقرب طريق وأنسب عبارة وتستخدم هذه لكل جاحد معاند.

وتارة تكون الحكمة باستخدام القوة بالكلام القوى وبالضرب والتأديب وإقامة الحدود لمن كان له قوة وسلطة مشروعة، وبالجهاد فى سبيل الله بالسيف والسنان تحت لواء ولى أمر المسلمين مع مراعاة الضوابط والشروط التى دل عليها القرآن والسنة وتستخدم هذه مع كل معاند ظلم وطغى ولم يرجع إلى الحق بل رده ووقف فى كل طريقه ليصد عنه وما أحسن ما قيل:

دعا المصطفى دهرا بمكة لم يجب
وقد لان منه جانب وخطاب
فلما دعا والسيف صلتٌ بكفه
له أسلموا واستلموا وأنابوا

والحكمة تجعل الداعى إلى الله يقدر الأمور بقدرها ويراعى أحوال المدعوين وظروفهم وأخلاقهم وطباعهم فتخرج أقوال الداعية إلى الله وأفعاله وتدبيراته وأفكاره تابعة من هذه الحكمة موافقة للصواب غير متقدمة على أوانها ولا متأخرة، لا زيادة عما ينبغى ولا نقص.

ثانيا: الموعظة الحسنة:

وهى طريقة فى التبليغ وأسلوب فى الدعوة يحببها إلى الناس ويقربهم منها ويشعر المخاطب فيها أن دور الداعى له دور الناصح الرفيق به، الباحث عما ينفعه ومن الأمثلة:

قوله تعالى لموسى وهارون: ﴿فَقُولَا لَهُۥ قَوْلًا لَّيِّنًا لَّعَلَّهُۥ يَتَذَكَّرُ أَوْ يَخْشَىٰ ﴿٤٤﴾﴾ [طه: ٤٤]، وسلك الخليل مع قومه سبيل المناجاة الذاتية وكذا شعيب يسلك مع قومه الموعظة الحسنة فيقول لهم: ﴿بَقِيَّتُ ٱللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ۚ وَمَآ أَنَا۠ عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾﴾ [هود: ٨٦].

ثالثا: المجادلة بالتى هى أحسن:

وهى الطريقة التى يواجه بها الداعية رد الفعل الذى تثيره الدعوة لدى المخاطبين نتيجة اختلاف أفكارهم عما جاءتهم به من عقيدة وسلوك، قال تعالى: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾﴾ [فصلت: ٣٣].

رابعا: القوة:

وتتلخص فى قوة الكلمة والقوة الفعلية مع الكفار باستخدام الجهاد فى سبيل الله تعالى، وكذا منها التهديد الحكيم والوعيد عليه

بالعقوبة، ومنها القوة بالعقوبات الشرعية والأمثلة على ذلك كثيرة.

هذا هو منهج النبى صلى الله عليه وسلم فى الدعوة إلى الله تعالى وبه انتشر الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها، وصدق فيه قول الله تعالى: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وفى الكتاب الذى بين أيدينا جهد وافر ورؤية معمقة لمنهج الدعوة وأسلوبها نسأل الله أن ينفع به المسلمين فى مشارق الأرض ومغاربها وأن يجعله فى ميزان صاحبه يوم القيامة، كما نبتهل إلى الله أن يكتب لهذا السفر العظيم القبول بين الناس، وأن يعاد طبعه مئات المرات لتعم الفائدة ويستفيد منه شباب الدعاة.

❑❑❑

القرآن وأسلوب الدعوة فى مكة والمدينة

بقلم: د. محمد وهدان
الأستاذ بجامعة الأزهر

إن استقراء ما نزل من آيات مكية تتحدّث عن أسلوب الدعوة فى مكة، وكيفية التعامل مع الخصوم، والتأمل فى المسيرة التى انتهجها الرسول وأصحابه فى حمل الدعوة والتبشير بالإسلام، تكشف لنا أنّ الرسول صلى الله عليه وسلم كان يدعو بالحكمة والموعظة الحسنة، ويتبع أسلوب الحوار الفكرى، والإقناع العلمى، ولم يستعمل العنف، ولم يشرع باستعمال القوة فى مكة، رغم ما لاقى هو وأصحابه من أذى واضطهاد، وفرض للحصار الاقتصادى والاجتماعى عليه، وعلى أصحابه وأعمامه، فى السنة العاشرة من البعثة. والقرآن رغم كل ذلك أمر النبى محمدا صلى الله عليه وسلم بالصبر والتحمل، وفتح الآفاق النفسية، وشرح الصدر، واللجوء إلى أسلوب الحوار العلمى، والإقناع المنطقى لهداية الناس، وإصلاحهم.. فهو نبى جاء بالهدى والإصلاح، وليس متسلطا يخضع الناس بالقوّة والإرهاب.

ولكى يتّضح أسلوب الدعوة، ونمط الخطاب فلنقرأ بعضا من النصوص القرآنية التى حدّدت موقف الرسول صلى الله عليه وسلم من الأذى والعدوان والاضطهاد والإرهاب الذى استعمل ضدّه وضد أصحابه، وضد مَن يستمع إلى خطابه ودعوته..

قال الله تعالى: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

﴿ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤].

﴿ قُلْ مَن يَرْزُقُكُم مِّنَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ ۙ وَإِنَّآ أَوْ إِيَّاكُمْ لَعَلَىٰ هُدًى أَوْ فِى ضَلَٰلٍ مُّبِينٍ ﴿٢٤﴾ ﴾ [سبأ: ٢٤].

﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون: ٦].

﴿ أُو۟لَٰٓئِكَ يُؤْتَوْنَ أَجْرَهُم مَّرَّتَيْنِ بِمَا صَبَرُوا۟ وَيَدْرَءُونَ بِٱلْحَسَنَةِ ٱلسَّيِّئَةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٥٤﴾ ﴾ [القصص: ٥٤].

﴿ وَقِيلِهِۦ يَٰرَبِّ إِنَّ هَٰٓؤُلَآءِ قَوْمٌ لَّا يُؤْمِنُونَ ﴿٨٨﴾ فَٱصْفَحْ عَنْهُمْ وَقُلْ سَلَٰمٌ ۚ فَسَوْفَ يَعْلَمُونَ ﴿٨٩﴾ ﴾ [الزخرف: ٨٨ – ٨٩].

﴿ وَمَا خَلَقْنَا ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَآ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَإِنَّ

﴿ ٱلسَّاعَةَ لَآتِيَةٌ فَٱصْفَحِ ٱلصَّفْحَ ٱلْجَمِيلَ ﴿٨٥﴾ ﴾ [الحجر: ٨٥].

﴿ وَعِبَادُ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلَّذِينَ يَمْشُونَ عَلَى ٱلْأَرْضِ هَوْنًا وَإِذَا خَاطَبَهُمُ ٱلْجَٰهِلُونَ قَالُوا۟ سَلَٰمًا ﴿٦٣﴾ ﴾ [الفرقان: ٦٣].

﴿ وَقُل لِّعِبَادِى يَقُولُوا۟ ٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ يَنزَغُ بَيْنَهُمْ ۚ إِنَّ ٱلشَّيْطَٰنَ كَانَ لِلْإِنسَٰنِ عَدُوًّا مُّبِينًا ﴿٥٣﴾ ﴾ [الإسراء: ٥٣]. وهكذا نجد القرآن يثبت منهج الدعوة بالحكمة والموعظة الحسنة. إنّه يدعو إلى الحوار والتفاهم إذ يقول: ﴿ ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ ﴾ [النحل: ١٢٥].

إنّه لم يتهم الطرف الآخر ولم يستفزه، بل دعا إلى رحلة حوار للبحث عن الحقيقة، ليعرف الطرفان أين الحق والصواب، بل ويتخذ أسلوبا سلميا آخر حينما يقول لهم: ﴿ لَكُمْ دِينُكُمْ وَلِىَ دِينِ ﴿٦﴾ ﴾ [الكافرون: ٦].

إنّه يدعو الآخر إلى التعايش، وإن لكل دينه وعقيدته وليدع كل منهما بدعوته، وليتحمل مسؤوليته، فالإنسان الذى يستعمل عقله وضميره وحسّه الأخلاقى سيكتشف أين الحقيقة، فإنّه مطمئن إلى انتصار منهج العلم والعقل.

ويتسامى منهج الدعوة ونمط الخطاب وأخلاقية الإنسان الحامل للدعوة الإسلامية، يتسامى بالدعوة إلى الصبر والتحمل، وعدم استعمال الرد والعنف، وقد جاء ذلك فى قوله تعالى:

﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ ﴾ [المزمل: ١٠].

﴿ فَٱصْبِرْ صَبْرًا جَمِيلًا ﴿٥﴾ ﴾ [المعارج: ٥].

﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُو۟لُوا۟ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ وَلَا تَسْتَعْجِل لَّهُمْ كَأَنَّهُمْ يَوْمَ يَرَوْنَ مَا يُوعَدُونَ لَمْ يَلْبَثُوٓا۟ إِلَّا سَاعَةً مِّن نَّهَارٍۭ بَلَٰغٌ فَهَلْ يُهْلَكُ إِلَّا ٱلْقَوْمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٣٥﴾ ﴾ [الاحقاف: ٣٥].

ثمّ ينتقل إلى مرحلة أخلاقية أسمى من مراحل المنهج الأخلاقى والسلوكى فيدعو إلى المغفرة والصفح الجميل.. ﴿ قُل لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ يَغْفِرُوا۟ لِلَّذِينَ لَا يَرْجُونَ أَيَّامَ ٱللَّهِ لِيَجْزِىَ قَوْمًۢا بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿١٤﴾ ﴾ [الجاثية: ١٤].

ويتسامى منهج الدعوة فى التعامل والخطاب إلى موقع أعلى فينادى بمقابلة الإساءة بالإحسان، لرفع الحواجز النفسية والفكرية، وتوفير الأجواء والظروف الكافية لفتح العقول والقلوب على مبادئ الحق والإيمان.. يتضح ذلك من قوله تعالى:

﴿ وَلَا تَسْتَوِي الْحَسَنَةُ وَلَا السَّيِّئَةُ ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ ﴾ [فصلت: ٣٤].

ثمّ يسترسل فى الثناء على هذا الأسلوب فى الدعوة فيوضح أنّ الذين يرتقون إلى هذا المستوى هم ذوو حظ عظيم، وأصحاب إرادة وصبر جميل.. ﴿ وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا الَّذِينَ صَبَرُوا وَمَا يُلَقَّاهَا إِلَّا ذُو حَظٍّ عَظِيمٍ ﴿٣٥﴾ ﴾ [فصلت: ٣٥].

إنّه الصبر والعفو والصفح والسلام، ومقابلة الإساءة بالإحسان، ذلك منهج القرآن فى دعوته، وتلك سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم العملية فى الدعوة وتبليغ الرسالة، ولكنّ الأشرار لم يستجيبوا لكل ذلك، فواجهوه وأصحابه بالعنف والإرهاب والقتل والتعذيب والحصار والحرب النفسية والإشاعات والتهم الباطلة، ومع ذلك صبر وغفر.

ولابدّ من الإشارة هنا إلى أنّ هذه الآيات، وإن نزلت فى مكة، ورسمت أسلوب الدعوة فى تلك البيئة والظروف، إلاّ أن تلك الآيات لم تنسخ، ولم تفقد دورها كأسلوب وطريقة فى نشر الدعوة الإسلامية، وإنّ ما جاء من آيات الجهاد كان لردع الطغيان والفساد وحماية حريّة الفكر، والدفاع عن الحق والعدل والهدى، وليست أسلوبا ناسخا لما جاء فى هذه الآيات وأمثالها.

والمرحلة الثانية من مراحل الدعوة فى العهد النبوي.. عصر التشريع، ونزول الوحي، واكتمال الرسالة.. المرحلة الثانية، كانت فى المدينة المنورة، وهى الفترة التى امتدت عشر سنوات، من يوم هجرة الرسول صلى الله عليه وسلم إليها وحتى وفاته فيها.

وفى المدينة المنورة تمّ بناء الدولة والمجتمع الإسلامى إلى جانب الدعوة إلى الإسلام.. وكما هو واضح وثابت تاريخيا فإنّ سبب الهجرة، هو الإرهاب والظلم والعدوان ضدّ النبى صلى الله عليه وسلم ودعوته والمؤمنين به والمتعاطفين معه، كما هاجر الآخرون إلى الحبشة قبل ثمان سنوات من الهجرة إلى المدينة.. فقد مارست قريش القتل والتعذيب والحصار الاقتصادى، والإرهاب الفكرى والاضطهاد الاجتماعى، فلم تفلح فى تحقيق أهدافها.. فقرّرت قتل النبىّ صلى الله عليه وسلم والتخلّص منه.

وهكذا خططوا لقتله وقرّروا ذلك.. وليلة التنفيذ أخبر الله سبحانه نبيه بما يريده أولئك الأعداء، فخرج مهاجرا إلى المدينة المنورة، بعد أن أصبحت له قاعدة فيها وأنصار، وبيعة تعهّد فيها زعماء المدينة بنصرته، والدفاع عنه، وعن الدين الذى يدعو الناس إليه.. وحين استقر النبى صلى الله عليه وسلم فى المدينة

التى تبعد عن مكة حوالى (٤٥٠) كم، شرع ببناء الدولة والمجتمع على أساس مبادئ الإسلام.. مبادئ الحق والعدل والإيمان، وقيم الأخلاق التى بشّر بها القرآن، لقد نصّ القرآن على بناء الدولة على أساس العدل وسيادة القانون واحترام إرادة الأمّة، جاء ذلك فى النصوص الآتية:

﴿ إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَٰنَٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴾ [النساء: ٥٨]

وثبت مبدأ سيادة القانون فى الدولة فخاطب النبى صلى الله عليه وسلم بقوله: ﴿ ثُمَّ جَعَلْنَٰكَ عَلَىٰ شَرِيعَةٍ مِّنَ ٱلْأَمْرِ فَٱتَّبِعْهَا وَلَا تَتَّبِعْ أَهْوَآءَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨﴾ ﴾ [الجاثية: ١٨]

فالنبى صلى الله عليه وسلم الحاكم مكلّف باتباع القانون وتنفيذه.. وفى الآية الآتية يؤكد القرآن احترام إرادة الأمّة والتشاور معها، والتعامل الإنسانى الشفاف، فخاطبه بقوله: ﴿ فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَٱعْفُ عَنْهُمْ وَٱسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِى ٱلْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾ ﴾ [آل عمران: ١٥٩].

وهكذا انتقل الإسلام بالمجتمع العربى فى المدينة من الحياة القبليـة، والصراعات التى كانت بين القبائل، إلى الدولة وبنائها علـى أرقى الأسـس الحضارية، على أسـاس العدل، وسـيادة القانـون، واحترام إرادة الأمّة ورأيها.. وراح الرسـول صلى الله عليه وسـلم يواصل دعوته إلى الإسلام فى أنحاء الجزيرة العربية كافّة، منطلقا من هذه القاعدة السياسـية، الدولة التى يقودها فى المدينة..

ولمـا كانت هناك موجبـات لحماية الدعـوة والدولة، وأنّها مهدّدة بغارات الأعداء، والقوى المعادية من حولها.. دولة الفرس فى الشرق، والروم فى الغرب.. وتكتل اليهود فى المدينة، وقوى قريـش فى مكة التى أخرجته منها، ومـا زالت تتعقبه، وتعمل على القضاء عليه، وعلى دعوته.. وكما يشـهد الواقع التاريخى فـإن كل الظروف القائمة من حول الدعوة آنذاك تُشـعر بالخطر على الوضع الحضارى الجديد.. وإن لغة العصر، وظروف المرحلة لا تعرف غير العنف والقوة.. والرسول صلى الله عليه وسلم يدعو بوسـائل الفكر والحـوار العلمي، وبالحكمة والموعظة الحسـنة، كما شهدت المرحلة التاريخية التى عاشتها الدعوة فى مكة ثلاثة عشر عاما..

وإذا فمن المنطقى والضرورى أن يتبنى هذا الدين أداة القوّة للدفاع والحماية والوقوف بوجه الطغيان والإرهاب الموجه ضدّه، وضدّ المستضعفين فكريا وسياسيا واقتصاديا واجتماعيا فى ذلك العالم الذى يسعى هو لتحريره وإنقاذه.. إنّه يريد أن يحرر الإنسان من العبودية، ولتلك الأوضاع قوى مسلّحة تحميها وتضطهد الإنسان، ولا تستجيب لمنطق العقل، ودعوة العلم والمعرفة.. من هنا كان لابدّ من أن يُشرّع الجهاد لمواجهة تلك الأسباب مجتمعة، ولهذا دعت الضرورة لتشريع الجهاد والقتال للدفاع، وإزالة الظلم والطغيان الذى تحصن بالعنف والقوّة والإرهاب..

ولمزيد من حفظ الأمن والسلام، وكف نذر الحرب والقتال، شرع الإسلام نظام المواثيق والعهود، ووضع له قوانينه وأحكامه الخاصّة، وابتدأ بمعاهدة سلام مع اليهود المقيمين فى المدينة، فى السنة الأولى من وصول الرسول صلى الله عليه وسلم إليها.. ثمّ توقيع معاهدة صلح الحديبية فى السنة السادسة من الهجرة.. وبهذا النظام ثبت أسلوبا حضاريا آخر من أساليب الدعوة العقائدية والسياسية.

❑❑❑

محمد ﷺ أعظم الدعاة

صفات ومهام الداعية

بقلم

د. عبد السلام جاد بسيونى

obeikandl.com

١ - دعوة الأنبياء ودعوة العلماء

يقول الله تعالى فى كتابه ﴿ وَإِن كُنتُمْ فِي رَيْبٍ مِّمَّا نَزَّلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا فَأْتُوا بِسُورَةٍ مِّن مِّثْلِهِ وَادْعُوا شُهَدَاءَكُم مِّن دُونِ اللَّهِ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿٢٣﴾ ﴾ [البقرة: ٢٣].

وفى سورة يوسف يصف سبحانه وتعالى حال ابن يعقوب وهو يقاوم دعوة الغواية مفضلا سجن الجسد على خيانته وخيانة الله ﴿ قَالَ رَبِّ السِّجْنُ أَحَبُّ إِلَيَّ مِمَّا يَدْعُونَنِي إِلَيْهِ وَإِلَّا تَصْرِفْ عَنِّي كَيْدَهُنَّ أَصْبُ إِلَيْهِنَّ وَأَكُن مِّنَ الْجَاهِلِينَ ﴾ [يوسف: ٣٣]. وفى الآية الأولى كان المعنى من الدعاء و الاستغاثة، وفى الثانية كان الحث على قصد الشيء والمعنيان اشتقا من مادة دعا، ويقال: دعا الله بمعنى رغب إليه وابتهل، ومنها الدعاية أى الترويج لأمر أو مذهب بالكتابة أو الخطابة ومنها الداعية أى الذى يدعو إلى دين أوفكرة. وفى أولى مراتب الدعاة يأتى الأنبياء والرسل سلام الله عليهم أجمعين، وفى السيرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم دعا عشيرته الأقربين والناس أجمعين أبيضهم وأسودهم أصفرهم وأحمرهم

صغيرهم وكبيرهم أميرهم ومأمورهم إلى دين الله، وكذلك فعل مع ملوك وأمراء ورؤساء عصره فأرسل إلى كسرى ملك فارس رسالة يقول له فيها: «أدعوك بدعاية الله» وأرسل مثلها للمقوقس عظيم القبط فى مصر يدعوه بدعاية الإسلام وإلى النجاشى عظيم الحبشة يدعوه إلى الله، وفى رسالته إلى الحارث الغسانى بالشام دعاه أن يؤمن بالله لا شريك له.

ومن حيث العرف فالدعوة هى حث الناس على الخير والهدى والأمر بالمعروف والنهى عن المنكر، والدعوة ليست هى الدين نفسه بل هى استحضار الدين كسلوك واقعى محسوس وهذا هو تصور مفهوم الدعوة فى الإسلام.

والمعنى على هذا النحو السابق يكشف عدم دقة التعريف الذى أورده الشيخ محمد الراوى فى أحد مقالاته، وخلط فيه ما بين مفهوم الدعوة ومفهوم الدين، ولم يفرق بين الدعوة كحركة لبناء الدين علميا فى نفوس الناس، والدين كضابط لسلوكهم. هذا الدين الذى نزل به جبريل الأمين على نبينا المعصوم.

والدعوة إلى الله درجات ومراتب كما أسلفنا أو كما وضَّح فضيلة الشيخ على محفوظ حين وضع دعوة الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين فى أعلى مرتبة وقال إن دعوتهم راجحة على دعوة غيرهم، ودليله إلى ذلك أنهم جمعوا بين الدعوة بالحجة

والدفاع عن الحق وأهله فى آن، وأنهم (أنبياء الله ورسله) كانوا البادئين ثم جاء من بعدهم العلماء فتبنوا دعوتهم على دعوة الأنبياء والرسل والسابق أفضل من اللاحق ثم إن نفوسهم أقوى وأرواحهم أصفى وتأثيرهم فى إحياء القلوب الميتة أقوى وإنارتهم للنفوس المظلمة أكمل وبعد الأنبياء فى المرتبة الثانية يأتى العلماء وهم على ثلاثة أقسام :

أولها : العلماء بالله وهم الحكماء الذين قال الله فيهم ﴿يُؤْتِي الْحِكْمَةَ مَن يَشَاءُ ۚ وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْرًا كَثِيرًا ۗ وَمَا يَذَّكَّرُ إِلَّا أُولُو الْأَلْبَابِ ﴿٢٦٩﴾﴾ [البقرة: ٢٦٩].

وثانيها : العلماء بصفات الله وهم أصحاب الأصول.

وثالثها : العلماء بأحكام الله وشريعته وهم الفقهاء والذى حدث أنه بعد نيف ومائتى عام من رسالة الحبيب محمد صلى الله عليه وسلم حينما كان الإسلام يواصل رحلة صعوده وانتشاره فى الأرض بعزيمة رجال لم تفتر همتهم فى توصيل رسالة الله لسائر خلقه وكانت المهام مقسمة فهناك من الرجال من ينفر للجهاد وهناك من يعكف على التعليم وغيرهم ممن عكف على دراسة مواعظ الدين وحكمه وآدابه وما يحض منها على مكارم الأخلاق وجلائل الأعمال هؤلاء الذين عرفهم الناس بزهدهم ونسكهم.

وأيضـا كان هناك الذين اتجهوا إلى فرع آخر من فروع العلم وهـو تعريف الأصول والاسـتدلال على وجـود الله تعالى وصفاته وإرسـال الرسـل وإمـكان وقوع المعجـزة وهؤلاء عرفهـم الناس بالمتكلمين.

ونفر ثالث غاصوا فى تخريج الأحكام وإظهار الحلال والحرام استنباطا من كتاب الله وسنة نبيه هم الفقهاء.

كان هؤلاء وأولئك جميعا على جانب عظيم من التقوى والورع والعلم والعمل وفى أحوالهم تلك كانوا دعاة إلى الله يأمرون بتوحيده وإفراده ويحضون على طاعته ويرشدون الناس إلى صراطه المستقيم ويدعونهم إلى الخير ليس بالكلام ولا الخطب الرنانة ولكن بالعمل وتقديم أنفسـهم قدوة صالحة وأسوة حسـنة مبنية على إدراكهم لمقت الله لهؤلاء الذين قال فيهم سـبحانه وتعالى ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ ﴿٣﴾﴾ [الصـف: ٣]. فالتقليـد ديدن الإنسـان يميل إليه بفطرته ويزداد شـوقه إلى المثل العليا، وتتضاعف همته وتهيب به الاهتداء بل المنافسة.

لكـن يبقى للقضية وجه آخر يتمثل فى خلق الإنسـان الذى جلبه الله تعالى على الاختيار الحر فخيره فى ذلك على الملائكة.. وهـذا الاختيار الحر الذى يصل إليه الإنسـان عن طريق العقل،

وهنا يبرز سؤال: هل يستطيع العقل البشرى أن يدرك بذاته أو يفرق بدقة بين الحق والباطل والنافع والضار والخير والشر؟!

الأمر يحتاج إلى مزيد من التوضيح ؛ إن الله سبحانه وتعالى خلق الإنسان فى أحسن تقويم وكرمه وفضله على كثير من خلقه حين وهبه نعمة العقل والإرادة فميزه عن سائر المخلوقات. وإدراك الإنسان ينقسم إلى نوعين: إدراك حسي، وإدراك عقلي.

فالإدراك الحسى تؤديه الحواس (السمع، والبصر، والشم، واللمس، والتذوق) ويحدث هذا بمعونة العقل، وعن طريق تلك الحواس يتم إدراك الكائنات الحسية المحيطة بنا فى السموات والأرض.

أما الإدراك العقلى فيؤديه العقل عن طريق خاصية الفكر وعن طريق هذه الخاصية يمكن أن ندرك دلالة المخلوقات على الخالق أو دلالة الكائنات على الله سبحانه وتعالي.

وبعبارة أخرى فالإدراك الحسى خاص بالجانب المادى فى الكون والإدراك العقلى خاص بالجانب المعنوي، وعن طريق هذا الإدراك نستطيع أن نتمثل صفات الخالق فى خلقه.. صفات القدرة والعلم والحكمة والرحمة والكرم وصفات أخرى كثيرة فالكائنات هى آثار لصفاته سبحانه وتعالى.

إذا أبصـر الفكر تلـك الآثار فإنما يبصر الطابـع المعنوى الذى يستشـعر به القلب صفة العظمة مثلا ومعناها وصفة القدرة ومعناها إلى آخـر صفات الجلال والكمـال مع التعليم بذلـك وهو ما يطلق عليه الإيمان والاعتقاد بوجود الله سبحانه وتعالي. وهنا نعيد طرح السؤال الذى سبق أن طرحناه: هل يستطيع العقل بذاته أن يدرك الإيمان دونما حاجة إلى مساعدة ؟ هو يفعل إن شاء الله ؛ لكن نحن نسأل عن قدرة العقل سؤالا مجردا وفى هذه الحالة تكون الإجابة :

إن العقول البشـرية وحدها لا يمكنها الاستقلال بتمييز المصالح الدنيوية عن الأخرويـة ولا تهتدى وحدها بالتمييز بين المتقابلات (الخير والشر مثلا) وليس من طبيعة وتكوين العقل البشرى الوقوف على حقائق الأمور أو تدبير شئونها على نظام محكم وعادل لا خلل فيـه ولا انحرافا حتى ولـو بلغت هذه العقـول حدها الأقصى من الإدراك فقد يسـيطر عليها الهوى وتغشـاها الشـهوات فتميل عن الحق إلى الباطل وتتحول عن الصلاح إلى الفسـاد وترى الشـر خيرا فتنجـذب إليه.. وهنا نقرر أن العقل لا يصلح وحده للاعتماد عليه فى قضية الإيمان وأبرز دليل على ذلك الحضارة المادية الملحدة التى أعلـت كذبا من قيمة العقل فضلت وهوت ورفضت الإيمان بالغيب الـذى لا تدركه الحواس (حتى الحواس يمكن أن تكذب صاحبها

فتخـدع البصر وتريه الماء سـرابا أو يحدث خلـلا فى الحواس فيتعطل عملها أو جزء منها وتنحرف عن الإدراك السليم).

والنتيجة التى تقودنا إليها هذه المقدمات إنه لا يمكن الاعتماد فقط فى قضية الإيمان على العقل والإدراك ومن هنا كانت حاجة البشر إلى الرسل مصداقا لقوله تعالى ﴿ رُّسُلًا مُّبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ لِئَلَّا يَكُونَ لِلنَّاسِ عَلَى ٱللَّهِ حُجَّةٌۢ بَعْدَ ٱلرُّسُلِ ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَزِيزًا حَكِيمًا ﴾ [النساء: ١٦٥].

وحتى يسأل سائل: وماذا لو لم يبلغ إنسان ؟! والإجابة فى كتاب الله سبحانه وتعالى ﴿ مَّنِ ٱهْتَدَىٰ فَإِنَّمَا يَهْتَدِى لِنَفْسِهِۦ ۖ وَمَن ضَلَّ فَإِنَّمَا يَضِلُّ عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۗ وَمَا كُنَّا مُعَذِّبِينَ حَتَّىٰ نَبْعَثَ رَسُولًا ﴾ [الإسراء: ١٥].

لقد شـرط الله حسـاب الناس يوم القيامة بتبليغهم الرسـالة وحـين التبليغ فقد انتفت الحجة « لئـلا يكون للناس على الله حجـة بعد الرسـل» فيقولون ما أرسـل إلينا رسـولا أو ما أنزل الله علينـا كتابا وفى التنزيل: ﴿ وَلَوْ أَنَّآ أَهْلَكْنَٰهُم بِعَذَابٍ مِّن قَبْلِهِۦ لَقَالُوا۟ رَبَّنَا لَوْلَآ أَرْسَلْتَ إِلَيْنَا رَسُولًا فَنَتَّبِعَ ءَايَٰتِكَ مِن قَبْلِ أَن نَّذِلَّ وَنَخْزَىٰ ﴾ [طه: ١٣٤].

ودليل ما سبق إنه فى قضية الإيمان أرسل الله للإنسان عونا لعقله ويبقى العقل أداة للفكر والتمييز حين يسىء الإنسان استعماله فيضله وكذلك سائر الحواس ومن هنا نعى الله سبحانه وتعالى على الكافرين ذلك وشبههم بالحيوانات العجماء التى لم تنتفع لا بالعقل ولا بالجوارح يقول الله تعالى فى وصفه لهؤلاء ﴿ وَلَقَدْ ذَرَأْنَا لِجَهَنَّمَ كَثِيرًا مِّنَ الْجِنِّ وَالْإِنسِ ۖ لَهُمْ قُلُوبٌ لَّا يَفْقَهُونَ بِهَا وَلَهُمْ أَعْيُنٌ لَّا يُبْصِرُونَ بِهَا وَلَهُمْ آذَانٌ لَّا يَسْمَعُونَ بِهَا ۚ أُولَٰئِكَ كَالْأَنْعَامِ بَلْ هُمْ أَضَلُّ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الْغَافِلُونَ ﴾ [الأعراف: ١٧٩]

لماذا يارب؟! لأنهم اتبعوا هواهم وشياطينهم وافتتنوا فى عقولهم حين اعتمدوا عليها فلم يستدلوا بها على خالقها وأضلهم هواهم فأعمى قلوبهم عن إدراك الحق مصداقا لقول الله تعالى ﴿ أَفَلَمْ يَسِيرُوا فِي الْأَرْضِ فَتَكُونَ لَهُمْ قُلُوبٌ يَعْقِلُونَ بِهَا أَوْ آذَانٌ يَسْمَعُونَ بِهَا ۖ فَإِنَّهَا لَا تَعْمَى الْأَبْصَارُ وَلَٰكِن تَعْمَى الْقُلُوبُ الَّتِي فِي الصُّدُورِ ﴾[الحج: ٤٦].

ولما كان من جهله شروط الإيمان بالله.. وبملائكته وكتبه ورسله واليوم الأخر إلى آخر هذه الغيبيات التى لا يدركها الإنسان بعقله أو بحواسه. فكيف للإنسان أن يتعرف على ذلك وبأى حاسة يمكن إدراكه يقينا ؟! إن ذلك لا يكون إلا بتوفيق

الله سبحانه وتعالى وتوفيق من نبى مرسل، أى بنص توقيفى أى نص شرعى يتعلق بقضية الإيمان.

هذا النص لم يكن ليختص به إلا بشر معصومون مؤهلون لحمل رسالة الله فلا يأتيهم الباطل بين يديهم ولا من خلفهم وهكذا أرسل الله الرسل بعد أن اصطفاهم من خلقه ووضعهم على عينه وأرسلهم للناس بمنهجه وشرعته يوضحونها جلية مبصرة وبجانب الشرائع يبسطون لهم المعاملات ويرغبونهم فى حسن الأخلاق ليكون الناس على بينة مما هو مطلوب منهم على وجه التحديد فيعبدوا ربهم ويقيموا دينه أصح عبادة وخير قيام من الله ورحمة بعباده ﴿ وَمَآ أَرۡسَلۡنَٰكَ إِلَّا رَحۡمَةٗ لِّلۡعَٰلَمِينَ ﴾ [الأنبياء: ١٠٧]. رحمة بهم حين يعرفهم بربهم ويعرفهم الطريق إليه فيعتصمون بالإيمان ورحمة لهم حين يعرفهم الحقوق المشروعة ويوصيهم بالفضائل والخير فلا يصيبهم من أنفسهم شر يمزقهم.

٢ - تحديد الهدف والتعرف على مجتمع الدعوة

القاعدة الثانية التى قام عليها المنهج الإسلامى فى الدعوة هي: تحديد الهدف. ومنذ اللحظة الأولى التى اضطلع فيها الرسول صلى الله عليه وسلم، بتبليغ رسالة ربه، كان الهدف قد

تحدد فى ذهنه وفى نفسه، وعلى النقيض أخطأت قريش حين نظر سادتها لدعوة رسول الله بمقاييس المصالح الدنيوية، وعلى هذا الأساس وجه إليه الوفد تلو الآخر يساومه أن يتنازل عن الأمر مقابل كل المغانم التى يمكن أن يطمح إليها أهل الدنيا: المال والشرف والملك، وهذا ما رفضه الرسول رفضا قاطعا.. لماذا؟ لأنه كما قال صلى الله عليه وسلم، لم يأت بما أتى به يطلب الدنيا دون الآخرة ولكن بعثه الله رسولا وأنزل عليه كتابا وأمره أن يبشر وينذر، وها هو يبلغ رسالات ربه وينصح لهم، وحين قال الرسول ما قاله كان يصدر عن الوحى وكان مؤيدا بكلام الله: ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِلَّا مَن شَآءَ أَن يَتَّخِذَ إِلَىٰ رَبِّهِۦ سَبِيلًا ﴾ [الفرقان: ٥٧] ﴿ قُل لَّآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ أَجْرًا إِلَّا ٱلْمَوَدَّةَ فِى ٱلْقُرْبَىٰ ﴾ [الشورى: ٢٣]

اختلف لفظ السماء عن لفظ الرسول لكن المعنى تطابق.. رسول الله ما اتبع إلا وحى الله الذى أوحى إليه وتنزيله الذى نزله عليه فى كل ما يصدر منه، ولم يسأل فى تبليغ رسالته عن جعل أو مال، فالدعوة لم تكن ولن تكون مصدر تمويل وارتزاق، فهناك أسباب وأبواب أضمن للرزق والله ضمن لكل مخلوق رزقه ﴿ وَمَا مِن دَآبَّةٍ فِى ٱلْأَرْضِ إِلَّا عَلَى ٱللَّهِ رِزْقُهَا ﴾ [هود٦]

.. خطوة أخرى يخطوها الرسول وتؤيدها السماء فى تحديد الهدف حين ينزل قرآنا يقرر: ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾. [الأنعام: ٥٠]

والآيات واضحة، إذا كان الداعى قد سما عن أطماع أهل الدنيا وارتفع فلا زالت قدماه تلامسان الأرض فلا يصح أو ينبغى أن يدعى لنفسه خاصية من خواص الإلوهية.. وهذا مزيد من التوضيح لبشرية الرسول الراعى فى استلهام البشر للكمال الإنساني، وحين ينفى رب العزة على لسان رسوله ادعاء هذه الخواص الإلهية فهو يبرئه من كل باطل يشوش على هدف الدعوة التى تقصد أول ما تقصد إلى إفراد الله بالتوحيد والربوبية وتنزهه عن الإشراك فى ملكه، لكن هيهات أن يتفكر عميان القلوب، الذين ذهبوا فى غمرة جهلهم يعرضون على رسول الله أن يكف عن سب آلهتهم مقابل صفقة يعقدونها معه، فيعبدون إلهه سنة ويعبد آلهتهم أخرى، فجاء الوحى يترجم ما استقر عليه فؤاد رسول الله صلى الله عليه وسلم فى إحاطة بالذات والزمن معا يقرر: ﴿ قُلْ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْكَٰفِرُونَ ﴿١﴾

﴿لَآ أَعۡبُدُ مَا تَعۡبُدُونَ ۝٢ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٣ وَلَآ أَنَا۠ عَابِدٞ مَّا عَبَدتُّمۡ ۝٤ وَلَآ أَنتُمۡ عَٰبِدُونَ مَآ أَعۡبُدُ ۝٥ لَكُمۡ دِينُكُمۡ وَلِيَ دِينِ ۝٦﴾ [الكافرون]، هو صلى الله عليه وسلم لا يصح ولا ينبغى ولا يمكن أن يشـرك بالله عبادة لما هو عليه من النبوة، وهم لا يعبدون ربه الـذى يدعو إليه لأنهم وقت الخطاب كافرون، وفى هذه اللحظة لا يمكـن أن يلتقى الطرفان فى العبـادة الصحيحة، والنفى هنا ليس تعصبا من الرسـول وذلك لما يتصف به كل طرف، هو نبى وهم كافرون، هم يعبدون باطلا وهو يعبد حقا، هو فيصل التفرقة بـين هدف الدعوة الصحيحة وكل دعـوة باطلة ضالة تحاول أن تخدع المخلصين ببريق الألفاظ ومعسـول السموم، إذن فلكل دينه وهو برىء من شركهم والله شهيد بينه وبينهم:

﴿قُلۡ أَيُّ شَيۡءٍ أَكۡبَرُ شَهَٰدَةٗۖ قُلِ ٱللَّهُۖ شَهِيدُۢ بَيۡنِي وَبَيۡنَكُمۡۚ وَأُوحِيَ إِلَيَّ هَٰذَا ٱلۡقُرۡءَانُ لِأُنذِرَكُم بِهِۦ وَمَنۢ بَلَغَۚ أَئِنَّكُمۡ لَتَشۡهَدُونَ أَنَّ مَعَ ٱللَّهِ ءَالِهَةً أُخۡرَىٰۚ قُل لَّآ أَشۡهَدُۚ قُلۡ إِنَّمَا هُوَ إِلَٰهٞ وَٰحِدٞ وَإِنَّنِي بَرِيٓءٞ مِّمَّا تُشۡرِكُونَ﴾ [الأنعام: ١٩].

٣ - التعرف على طبيعة المجتمع

القاعدة الثالثة التى صدر عنها أعظم الدعاة، والتى قام عليها المنهج الإسلامي: هى التعرف على طبيعة المجتمع الذى يتوجه

إليه الداعى بدعوته، والمقصود هنا بطبيعة المجتمع عاداته وتقاليده وأنماطه الثقافية وهذه المعرفة جزء مهم من وظيفة الإخصائى الاجتماعى الذى يعمل فى مجال الخدمة الاجتماعية، ووسيلته فى بلوغ هذا الهدف ؛ الدراسة النظرية التى تحتاج إلى زمن وقد تؤدى فى النهاية إلى تعرف سطحى من جانب الخادم أو الإخصائى الاجتماعي، وهنا تبرز عملية المنهج الإسلامى فى العمل مع الجماعة بصورة أجل وأسمى وأشمل وأوسع حين تطلب تبادل المعرفة بين الطرفين، فالداعى يتعرف على طبيعة المجتمع، والمجتمع يتعرف على طبيعة الداعي.

وقد يبدو للبعض أن محمدا صلى الله عليه وسلم قد توجه برسالته إلى مجتمع ضيق صغير تمثل فى قريش أو أهل الجزيرة العربية على وجه المبالغة، لكن الحقيقة أن طبيعة الرسالة باعتبارها خاتمة رسالات السماء استوجبت أن تتسع الرسالة وتتسع رؤية الداعى لتشمل الإنسانية كلها فى مشتركاتها الأعم والأشمل، وهذا لم يمنع أن يتوجه رسول الله للخلية الأولى المتمثلة فى المجتمع الذى ولد ونشأ وتربى فيه تصحبه عصمة إلهية لا يقدر معها على الانجذاب أو الانغماس فى مثالبه، وبعبارة أخرى كان إيجابيا مع الحياة الفاضلة.

لقد عاش النبى عليه الصلاة والسلام مع المجتمع الذى سينقل إليه الدعوة فامتهن مهنه واشتغل بأشغاله، وكان راعيا للغنم، وكان تاجرا سافر بتجارته فشارك القريشيين رحلة الشتاء والصيف، وانضم إلى بعض الأنشطة الاجتماعية الإيجابية فاشترك فى حلف الفضول، وكان قاضيا فى مدلهمات الأمور ففصل بذكاء كبير فى مسألة نقل الحجر الأسود، ومنع فتنة كادت أن تنشب أظافرها فى مكة، وعلى مستوى الأخلاق اشتهر بالصدق والأمانة ولم يعرف عنه السجود أو الاحتفال بصنم أو معاقرة الخمر أو إتيان الميسر أو الذبح على النصب، وفى السيرة إنه لما حدثته نفسه صبيا على الاشتراك فى لهو واحتفلات المناسبة، فقد عصمه الله جل شأنه منذ اختاره لهداية البشر بشيرا ونذيرا. ولم يحظ نبى من الأنبياء ولا زعيم من الزعماء فى غابر الزمان مثل محمد صلى الله عليه وسلم لأنه فى هذه الحياة كان حاضرا فى مجتمعه شامل حضوره بالممارسة التى تفوق خدمة العمل مع الجماعة فى العصر الحديث فسجل بذلك منهجا نظريا وتطبيقيا خالصا بالأسبقية التاريخية والعملية للدعوة الإسلامية.

٤- تربية القيادة على المستوى الفكرى

كان هناك أيضا إعداد على المستوى الفكرى يشمل الرسالة والدعوة، وكان النبى صلى الله عليه وسلم يبلغ أصحابه الوحى

وهو أقدر الناس على تفهم أسلوب القرآن وكانوا يستقبلون ذلك بصدورهم التى هى أكرم وأطهر وأصفى وعاء يعى ويحفظ ما جاء به الوحى الأمين، ومن بعد الصدور كانت العقول صافية واسعة الفهم عميقة الإدراك يعكس هذا بجلاء تلك المناقشة التى دارت بين جعفر بن أبى طالب والنجاشى حين وقف الأول فى حضرته ممثلا وفد المهاجرين إلى الحبشة ومتحدثا عنهم:

سأله النجاشي: ما هذا الدين الذى فارقتم فيه قومكم ولم تدخلوا به فى دينى ولا دين أحد من هذه الملل ؟ فجاوبه جعفر: كنا قوما أهل جاهلية نعبد الأصنام، ونأكل الميتة ونأتى الفواحش ونقطع الأرحام، ونسئ الجوار ويأكل القوى منا الضعيف، فكنا على ذلك حتى بعث الله إلينا رسولا منا نعرف نسبه وصدقه وأمانته وعفافه فدعانا إلى الله لنوحده ونعبده ونخلع ما كنا نعبد من دونه من الحجارة والأوثان وأمرنا بصدق الحديث وأداء الأمانة وصلة الرحم، وحسن الجوار، والكف عن المحارم، والدماء ونهانا عن الفواحش وقول الزور وأكل مال اليتيم وقذف المحصنات وأمرنا أن نعبد الله وحده ولا نشرك به شيئا وأمرنا بالصلاة والزكاة والصيام.

ومضى جعفر يعدد على النجاشى أمور الإسلام.. النظرية والتطبيقية معا، ثم قرأ عليه القرآن حتى بكى هو وأساقفته،

وقال مقالته التاريخية: (إن هذا والذى جاء به عيسى يخرج من مشكاة واحدة) وبقى هذا الحوار وثيقة حفظها لنا التاريخ تعكس المستوى الفكرى الذى درج عليه أتباع محمد والمستوى الوجدانى الذى زرعه بداخلهم الرسول والرسالة.

ولا تكتمل منظومة الإعداد العقلى والنفسى إلا بتوفير الاستقرار الاقتصادى أو على الأقل الحد الأدنى منه، وفى مرحلة إعداد القادة أخذ الرسول صلى الله عليه وسلم على عاتقه كفالة من دارت عليه دائرة العوز، يقول البيهقي: «كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أسلم الرجل والرجلان ممن لا شيء لهما ضمهما رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرجل الذى فى يده السعة فينالا من فضلة طعامه»، وهناك فى هذا السياق قصة إسلام خالد بن سعيد ؛ هذا الفتى الذى انتهره أبوه وغضب عليه حين علم بإسلامه وحلف ليمنعه القوت فانصرف إلى رسول الله عليه الصلاة والسلام فكان يلزمه ويعيش معه بعد أن قال لأبيه: «إن منعتنى فإن الله يرزقنى».

وهذه قاعدة أخرى فى تربية الدعاة أساسها العزوف عن زينة الحياة الدنيا رغبة فيما عند الله وهذا المستوى من التربية اجتازه تلاميذ المدرسة الأولى فى الإسلام وفى الدعوة من خلال اجتماعهم فى دار الأرقم بن الأرقم. وحين قدم أبو ذر من بعيد

يستطلع أمر الإسلام دون أن يسأل أحدا من كفار قريش وبات ما شاء الله له أن يبيته فى مكة، فلما قدم على النبى عليه الصلاة والسلام يسأله: فمن كان يطعمك ؟ قال: ما كان من طعام إلا ماء زمزم.. والسؤال يكشف عن حرص السائل على رعاية الجانب الاقتصادى بالقدر الذى يكفل الحياة الإنسانية ويبلغ القدرة على أعباء العمل والجهاد.

كان إذن تهيئة القدر المالى للقادة أمرا مهما لأنه يعينهم ويسعفهم على العيش وينأى بهم عن ضغط المعاندين وأذى الكفار.. وهذا الأمر نفسه يردنا مرة أخرى إلى سؤال: هل كانت دعوة محمد صلاة الله وسلامه عليه سرية؟!..

أرى أن السؤال لابد أن يسبقه سؤال آخر: هل كان أمر نزول الوحى على رسول الله صلى الله عليه وسلم سرا؟! وحوادث التاريخ وما وصلنا من الثقات عن سيرة رسول الله تجيبنا عن السؤالين: ولقد عرفنا منها خبر إسلام السابقين ومنهم زوج الرسول خديجة بنت خويلد أول من آمن من النساء، دفعها إلى ذلك كمال عقلها وذكاء وسلامة فطرتها، ثم إسلام أبى بكر الصديق أول من أسلم من الرجال الأحرار، وإسلام زيد بن حارثة أول من أسلم من الموالي، وإسلام على بن أبى طالب أول من أسلم من الصبية رضى الله عنهم أجمعين.

وفى السيرة أن العباس عم الرسول صلى الله عليه وسلم، خرج فى تجارة إلى اليمن فى ركب فيه أبو سفيان بن حرب، فورد كتاب من حنظلة بن أبى سفيان فيه أن محمدا أقام بالأبطح فقال: أنا رسول الله أدعوكم إلى الله، ففشا ذلك فى مجلس اليمن فجاءنا حبر من اليهود فقال: بلغت أن فيكم عم هذا الرجل الذى قال ما قال ؟ قال العباسى: فقلت نعم، قال: أنشدك هل كانت لابن أخيك صبوة وسفه ؟ قلت لا وإله عبد المطلب، ولا كذب ولا خان، وإن كان اسمه عند قريش « الأمين». قال فهل كتب بيده ؟ قال العباسى: فظننت أنه خير له أن يكتب فأردت أن أقول: نعم، فخشيت من أبى سفيان أن يكذبنى ويرد على، قلت: لا يكتب فوثب الحبر وترك رداءه وقال ذبحت يهود..

كان هناك حديث متواتر فى مجتمع مكة عن نبى آخر الزمان وكانت اليهود تستفتح على كفار العرب تقول لهم إنه قد أطل زمان نبى يبعث فى آخر الزمان نقاتلكم معه وكان مجتمع مكة يعرف ظاهرة الحنفاء ولا ينكرها حيث لا خطورة منها على مصالحه وقيمه التى ارتضاها.. وهذا الأمر ذاته الذى تصوره كفار قريش فى البداية وبعد أن عرف بنبوة محمد صلاة الله وسلامه عليه، وفى السيرة عن ابن عفيف الكندى عن أبيه عن جده قال:

كنت امرأ تاجرا فقدمت للحج، فأتيت العباس بن عبد المطلب لأبتاع منه بعض التجارة قال فوالله إنى لعنده بمنى، إذا رجل خرج من خباء قريب منه ينظر إلى الشمس لما رآها قام يصلى ثم خرجت امرأة من ذلك الخباء الذى خرج من ذلك الرجل فقامت خلفه تصلى ثم خرج غلام حين راهق الحلم من ذلك الخباء فقام معه يصلى.. قال: فقلت للعباس: يا عباس ما هذا ؟! قال: محمد بن عبد الله بن عبد المطلب، قلت: من هذه المرأة ؟! فقال امرأته خديجة بنت خويلد.. فقلت من هذا الفتى ؟ قال: على بن أبى طالب ابن عمه.. قلت فما هذا الذى يصنع؟ قال يصلى فهو يزعم أنه نبى ولم يتبعه على أمره إلا امرأته وابن عمه هذا الفتى، وهو يزعم أنه تفتح له كنوز كسرى وقيصر.

ومن الرواية نفهم أن الدعوة نفسها كانت معروفة للناس، ولكن الذى وصف بالسرية فى هذه المرحلة هو العمل لها وهو الذى نطلق عليه مرحلة إعداد القيادة كجزء من منهج العمل مع الجماعة. وفى دار الأرقم بن الأرقم وهو عبد مناف بن أسد القرشى أسلم عشرة عشرة، وفى هذه الدار كان النبى صلى الله عليه وسلم قد استخفى يدعو الناس إلى الإسلام سرا حتى اكتمل عدد المسلمين أربعين رجلا كان آخرهم إسلاما عمر بن الخطاب

ومنهم أبو عبيدة الجراح وسعيد بن زيد وأبو سلمة عبد الله بن عبد الأسد وعبيدة بن الحارث وأسماء وعائشة بنتا الصديق وعبد الله بن مسعود وخباب بن الأرت وعمير بن أبى وقاص ومسعود بن القارى وغيرهم من كبار الصحابة رضى الله عنهم أجمعين، وبإسلام حمزة وعمر قويت شوكة المسلمين وجاء أمر السماء للرسول صلى الله عليه وسلم ﴿ فَاصْدَعْ بِمَا تُؤْمَرُ وَأَعْرِضْ عَنِ الْمُشْرِكِينَ ﴾ [الحجر: ٩٤]

وجاءه أيضا ﴿ وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ ﴾ [الشعراء : ٢١٤]، فأعلن الرسول دعوته فى مكة على جبل الصفا، حين وقف ونادى واصبحاه واصبحاه !!!، فهز صوته جنبات وادى مكة، وأقبل الناس نحو النداء زرافات ووحدانا حتى امتلأت ساحة الصفا فقال لهم الرسول صلى الله عليه وسلم « يا معشر قريش: أرأيتم لو أخبرتكم أن خيلا بسفح هذا الجبل تريد أن تغير عليكم أصدقتمونى ؟ قالوا نعم: فقال «إنى نذير لكم بين يدى عذاب شديد أنقذوا أنفسكم من النار» ومنذ هذه اللحظة بدأت المواجهة مع كفار قريش.

وبناء على ما سبق فلا يجب أن نردد أو نقول خلف القائلين: سرية الدعوة؛ فإن الحق الذى سجله التاريخ هو وضوح الدعوة

واشتهارها وسرية العمل لها إعدادا للقيادة وتربية لها لتحمل مع الداعية عبء العمل عند الجهر بها والصدع بها للناس.

٥- العرض الواضح

ومازال الرسول صلاة وسلاما عليه يعرض دعوته على قومه ومن بعث فيهم عرضا واضحا صادقا يتجلى هذا الصدق وهذا الوضوح فى أمرين :

الأول: وضوح الهدف من الدعوة. والثاني: وضوح الدليل على صدق الدعوة.

وإذا كانت دعوات البشر التى عرفناها فى العصر الحديث لا يتم الإفصاح عن أهدافها وتختفى هذه الأهداف غالبا خلف شعارات براقة ثم لا تلبث أن تنكشف حين يتمكن أصحاب هذه الدعوات ويفرضون أسلوب القهر والسيطرة وإلغاء العقل والإرادة وإهدار الكرامة الإنسانية فلا تلبث أن تنفض عنهم الجماهير بعد أن تكتشف حقيقة دعواهم ويذهب زبدهم جفاء وتبقى بعده الحسرة والكمد وشقاء الناس وعسرهم.

أما الدعوة الإسلامية فمنذ اللحظة الأولى – التى صدع فيها الرسول بأمر ربه وبدأ فى تبليغ دعوته وخلال ثلاثة عشر عاما على ما رواه علماء السيرة العطرة – حرصت وهى تضع القواعد

لمنهج العمل مع الجماعة أن يكون هدفها واضحا وأسلوبها كذلك وأما وضوح الهدف فقد استغرق النص المعصوم «القرآن الكريم» والأثر النبوى الشريف وهما الأصل فى تحديد المراد من الدعوة الإسلامية وظهر فيهما الهدف من الدعوة بارزا فصيحا قوى الأسلوب وقوى المنطق جادا لا هزل فيه لا يركن إلى هوى النفس أو وسوسة الشيطان.

كان هدف الدعوة الأول إحياء سنة الله فى الأرض والدعوة لعبادة الله الواحد الأحد وتنقية الشوائب التى علقت بهذه العبادة أو كما جاء عن رب العزة فى القرآن العظيم ﴿ قُلْ إِنَّنِي هَدَىٰنِي رَبِّيٓ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ دِينًا قِيَمًا مِّلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۚ وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿١٦١﴾ قُلْ إِنَّ صَلَاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿١٦٢﴾ لَا شَرِيكَ لَهُۥ ۖ وَبِذَٰلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا۠ أَوَّلُ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿١٦٣﴾ قُلْ أَغَيْرَ ٱللَّهِ أَبْغِي رَبًّا وَهُوَ رَبُّ كُلِّ شَىْءٍ ۚ وَلَا تَكْسِبُ كُلُّ نَفْسٍ إِلَّا عَلَيْهَا ۚ وَلَا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ۚ ثُمَّ إِلَىٰ رَبِّكُم مَّرْجِعُكُمْ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿١٦٤﴾ ﴾ [الأنعام : ١٦١ : ١٦٤].

وكما أسلفنا، فقد كان بين العرب من لا يزال على حنفية إبراهيم عليه السلام يحيى سنته ويتمسك بوحدانيته فجاءت آيات الله تذكر الكفار من العرب بهذه السنة وهذا الدين وتحيى الربوبية لتنفى الشرك بالله الذى شاع فى مجتمع الجاهلية.

﴿ إِنَّ رَبَّكُمُ ٱللَّهُ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ يُدَبِّرُ ٱلْأَمْرَ ۖ مَا مِن شَفِيعٍ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ إِذْنِهِۦ ۚ ذَٰلِكُمُ ٱللَّهُ رَبُّكُمْ فَٱعْبُدُوهُ ۚ أَفَلَا تَذَكَّرُونَ ﴾ [يونس: ٣].

هذه هى الرسالة، أما الرسول فقد برأه القرآن من فوق سبع سموات من كل شائبة ومن كل عرض للحياة الدنيا كبر أو صغر قل أو عظم ﴿ قُلْ مَآ أَسْـَٔلُكُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ وَمَآ أَنَا۠ مِنَ ٱلْمُتَكَلِّفِينَ ﴾ [ص: ٨٦].

فلا ينبغى أن تتخذ مثل هذه الدعوة مصدرا للإثراء أو موضوعا للتجارة والتربح ﴿ قُل لَّآ أَقُولُ لَكُمْ عِندِى خَزَآئِنُ ٱللَّهِ وَلَآ أَعْلَمُ ٱلْغَيْبَ وَلَآ أَقُولُ لَكُمْ إِنِّى مَلَكٌ ۖ إِنْ أَتَّبِعُ إِلَّا مَا يُوحَىٰٓ إِلَىَّ ۚ قُلْ هَلْ يَسْتَوِى ٱلْأَعْمَىٰ وَٱلْبَصِيرُ ۚ أَفَلَا تَتَفَكَّرُونَ ﴾ [الأنعام: ٥٠].

وحين يوضح القرآن هذا الأمر فهو يخاطب العقل وينفى عن الرسول أى شبهة للخداع ويقرر بشريته فى ذات الوقت، هذه المعانى العظيمة التى أكدها اللفظ النبوى بالأمثلة التى تقرب المعانى للأفهام. يقول الرسول صلاة وسلاما عليه مخاطبا قومه: «ترون هذه الشمس» قالوا: نعم، قال: «فما أنا بأقدر أن أدع ذلك منكم على أن تشتعلوا منه بشعلة».

ومن وضوح الهدف إلى وضوح وقوة الدليل وشموله على عناصر الإقناع التى تهيئ قبول العقل له وإحساس الوجدان بصدقه حين

يتم تصويرها حقائق مسلمة ﴿الٓرۚ كِتَٰبٌ أُحۡكِمَتۡ ءَايَٰتُهُۥ ثُمَّ فُصِّلَتۡ مِن لَّدُنۡ حَكِيمٍ خَبِيرٍ﴾ [هود: ١].

﴿ٱلۡحَمۡدُ لِلَّهِ ٱلَّذِيٓ أَنزَلَ عَلَىٰ عَبۡدِهِ ٱلۡكِتَٰبَ وَلَمۡ يَجۡعَل لَّهُۥ عِوَجَاۜ ١ قَيِّمٗا لِّيُنذِرَ بَأۡسٗا شَدِيدٗا مِّن لَّدُنۡهُ وَيُبَشِّرَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ٱلَّذِينَ يَعۡمَلُونَ ٱلصَّٰلِحَٰتِ أَنَّ لَهُمۡ أَجۡرًا حَسَنٗا ٢﴾ [الكهف: الآيتان١و٢].

﴿وَكَذَٰلِكَ أَنزَلۡنَٰهُ قُرۡءَانًا عَرَبِيّٗا وَصَرَّفۡنَا فِيهِ مِنَ ٱلۡوَعِيدِ لَعَلَّهُمۡ يَتَّقُونَ أَوۡ يُحۡدِثُ لَهُمۡ ذِكۡرٗا﴾ [طه: ١١٣].

وعن وحدانية الله يقدم القرآن دليلا بسيطا يخاطب أبسط العقول حين ينفى الشرك فيقول عز من قائل: ﴿لَوۡ كَانَ فِيهِمَآ ءَالِهَةٌ إِلَّا ٱللَّهُ لَفَسَدَتَاۚ فَسُبۡحَٰنَ ٱللَّهِ رَبِّ ٱلۡعَرۡشِ عَمَّا يَصِفُونَ﴾ [الأنبياء: ٢٢]، وهكذا يعرض القرآن الكريم الدعوة فى أسلوب عبقرى التسلسل فى مجموعة السور المكية التى سجلت طور الحياة لهذه الدعوة فى ظلال البيت العتيق مكة المباركة، ففى سورة الأنعام هناك القضية الكبرى قضية العقيدة والقاعدة الرئيسية للعبودية الصحيحة لله رب العالمين.

ومع العقيدة هناك الشريعة التى تهدف إلى طهارة المؤمن، طهارة القلب قبل الجسد، فالقلب حمل الاعتقاد والقلب يغذيه

الدم، والدم يغذيه الطعام ولابد للطعام أن ينقى من نجاسة الشرك المتمثلة فى الذبح على الأصنام والأوثان والنصب. ويمضى القرآن المتفرد فى بنائه وفى آياته وسوره ولفظه يعرض الدعوة مستوعبا كل أجزاء موضوعها متخذا كل زاوية من زوايا الفكر والوجدان والتاريخ فى جملة ما ساقه ممتازا وحده بالوضوح الدائم على طول الزمن الممتد فارقا ما بين دعوة الله وكلامه المجيد ودعوات البشر وكلامهم الموضوع.

٦ - الاستقطاب حول الدعوة

لا تعرف الحياة البشرية طوال تاريخها على الإطلاق داعية من البشر جمع حوله وحول دعوته هذا الزخم مثل سيد البشر محمد صلى الله عليه وسلم، فقد تحلق حوله وانجذب نحوه أجيال وأجيال من العلماء والمفكرين والأتباع، حدث هذا فى حياته منذ أن نشأ إلى جوار البيت العتيق وحتى بعد صعود روحه الطاهرة إلى الرفيق الأعلى، أما الدعوة فقد أسلفنا بتوضيح ما فيها من مواطن صدق وقوة تستمدها من السماء فتخطف بها أفئدة أهل الأرض وتجذبها إلى حظيرة الإيمان.. وأما الداعية فقد جمعت سيرته أشتات من الناس منهم المسلمون الصادقون

والكافرون المتعصبون أو المنصفون وفى هذه السيرة وُضعت كتب كثيرة فى لغات عديدة على مر الأزمان حتى صارت عشرات بل مئات الآلاف من المكتبات حول العالم لا تخلو من كتاب أو مطبوعة عن نبى الإسلام ورسالته التى صارت واضحة للبشرية كل الوضوح، ولم يعد فيها سر أو أمر مستغلق ولا أحاجى يغمض تفسيرها، وصار تاريخ الإسلام متاحا لكثيرين وأمر محمد عليه الصلاة والسلام معلوم فيه الصغيرة قبل الكبيرة ومنذ ميلاده ورضاعه مرورا بشبابه وبعثه وحتى انتقاله إلى الرفيق الأعلى.

ومنذ انطلاق الدعوة عمل رسول الله عليه الصلاة والسلام على وضع منهج الاستقطاب كعامل مثير ومغير للبيئة إلى الاتجاه المرغوب فيه، وبالفعل انطلقت الدعوة الإسلامية تقلقل الثقافات والموروثات الشعبية وعقيدة الجاهلية الأولى لتحل محلها تصورا جديدا للعقائد والأخلاق والمعاملات.

وعلى الجانب الآخر، انجذب المجتمع تلقائيا إلى الحقيقة التى تخاطب فطرة الله وإلى النور الذى فجرته إرهاصات النبوة. وعندما شرع الرسول ومن معه لاستقطاب الأطراف من القبائل والأقوام التى تقع على أطراف المركز أو البيئة الأولى للدعوة خشى كفار مكة من انجذاب هؤلاء إلى دعوة الإسلام وإلى محمد صلى الله عليه وسلم وطارت أفئدتهم هلعا وفزعا عندما تناهت إليهم أخبار

أن محمدا يبشر بين حجيج العرب وخشى الكفار من انجذاب الحجيج إلى الإسلام والدخول فيه وحيرهم الوصول إلى رأى يتفقون فيه على دعاية مضادة يشككون بها فى دعوة الإسلام.. والآن: ما أحوج الدعوة الإسلامية إلى مستوى هذا العمل المحمدى العظيم الذى سبق فيه الفعل القول وغلب فيه السلوك المطبق على الشعارات المرفوعة وسادت الطمأنينة والإخلاص والسعادة على الشك والريبة والضيق وعلا فيه اسم الله على كل شىء وخضعت النفوس لجلال العظمة الإلهية وليس لوضاعة بشر أو جماد.

٧ - مطابقة السلوك للمبادئ

.. وبعد أن بذلت قريش كل ما بوسعها من قوة وحيلة فى إطفاء أنوار الدعوة المحمدية وباءت بخيبة مريرة حولت غضبها إلى نقمة على المستضعفين من المؤمنين علها تشق صفوفهم أو تعيدهم إلى حظيرتها.. أما الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم فقد وجهت إليه سلاح الترهيب بقدر ما وجهت سلاح الترغيب:

- أفرغت يا أبا الوليد..؟!

بهذا الأدب الجم يخاطب الرسول صلى الله عليه وسلم عتبة بن ربيعة حين يناديه بكنيته يسأله هل انتهى مما عنده وقد أفرط

فى حديث طويل يثير الحليم ويغضب الحر ويهيج العفيف، لقد جاء ابن ربيعة لرسول الله بعرض من سادة قريش فيه من المهانة ما فيه، فقال له متحدثا بلسان سادته: «يا أيها الرجل إن كنت تريد بما جئت به من هذا الأمر مالا جمعنا لك من أموالنا حتى تكون أكثرنا مالا، وإن كنت تريد به شرفا سودناك علينا حتى لا نقطع أمرا دونك، وإن كنت تريد به ملكا ملكناك علينا، وإن كان هذا الذى يأتيك رؤى تراها لا تستطيع ردها عن نفسك طلبنا لك الطب وبذلنا فيه أموالنا حتى نبرئك منه، فإنه ربما غلب التابع على الرجل حتى يداوى منه». لقد وضع الرجل ما يشبه بلغة العصر صفقة مقابل إيمان الرسول ودعوته.. عرض عليه الدنيا بما فيها من مال وجاه وحتى العلاج من السقم، لكن الأمر لم يكن هكذا عند صاحب الدعوة.

– أفرغت يا أبا الوليد

–نعم

– فاسمع مني، وطفق صلى الله عليه وسلم يقرأ مستفتحا بسم الله الرحمن الرحيم ﴿حمٓ ۝١ تَنزِيلٌ مِّنَ ٱلرَّحۡمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝٢﴾[فصلت: ١-٢] حتى وصل إلى قول الله تعالى ﴿فَإِنۡ أَعۡرَضُواْ فَقُلۡ أَنذَرۡتُكُمۡ صَٰعِقَةٗ مِّثۡلَ صَٰعِقَةِ عَادٖ وَثَمُودَ ۝١٣﴾ [فصلت: ١٣]

فأمسك عتبة بالفم الكريم خشية وخوفا من نزولها وعلامة على أنه يصدق القائل الذى لم يجرب أحد عليه الكذب من قبل.

الرسول صادق وقريش تعرف ذلك وهو فوق صدقه حليم ولم يكن حلمه هذا فى ذاك الموقف فقط بل كان سلوكا ومنهجا فى العمل الدعوى يظهر مرة ومرات أخرى وبجلاء أشد.. حين ذهب إلى الطائف يدعو سادتها أن يترفعوا عن الانحطاط الذى يزاولونه بالسجود لجمادات تصنعها أيديهم أو أيدى غيرهم من البشر، جمادات لا تملك لنفسها خيرا أو شرا، يدعوهم إلى عبادة الله الواحد عبادة تتفق مع العقل فى استقامته لكن القوم آذوه وأغروا سفهاءهم وعبيدهم فجعلوا يسبونه ويصيحون به ويرمونه بالحجارة حتى أدموا قدميه الشريفتين وهم يتضاحكون، ويصفح الرسول الكريم عنهم بل ويدعو لهم ربه بالهداية، عل الله أن يخرج من أصلابهم من يعبده وحده ولا يشرك به شيئا.

وفى أحلك الظروف وأقساها عليه بفعل طواغيت الكفر يسأله أصحابه: لو دعوت الله عليهم؟! فيرد الرسول الكريم الرد الجميل: إنى لم أبعث لعانا، ولكن بعثت داعيا ورحمة: اللهم أهد قومى فهم لا يعلمون.

كانت أيضا القناعة رداء يزين نفسه الذكية، وفى شدة كفافه يراه قومه أغنى الناس، وتغنيه قناعته عن إبل تأتيه موقرة

بالخزائن توضع عند قدميه ولا يشتكى الحاجة وقد لا توقد فى بيته نار لأيام طوال. ويغرى بنعيم الدنيا المادى فيرفضه ويطوى على الجوع.. بأبى أنت وأمى يا رسول الله.

قائد عظيم يقود الجند قليل العدد ضعيف العدة يهزم به صناديد الكفر جيوشا مجيشة وعديدة بالصلح وبالسلام ويوقع شروط الهدنة بقلب مطمئن إيمان النصرة من الحق. وتراه مشغولا بأمور العرب جميعها ولا يفوته أمرا من أمور بيته وأزواجه وأولاده وفقراء المسلمين ومساكينهم يهتم بأمر العالم كله فى ذات الوقت الذى يراه من حوله راهبا خاشعا منقطعا عن الدنيا، هو فى الدنيا وليست الدنيا فى قلبه يملكها فى قبضته ولا تملك منه ذرة، يتقدم الصفوف ويعلن نفسه قدوة وقائدا بالعمل قبل الفعل، يأتيه أمر الوحى فيسبق اتباعه بالعمل به قبل أن يأمرهم بأمره.. كان قرآنا يمشى على الأرض كما وصفته السيدة عائشة رضى الله عنها.. كان صلى الله عليه وسلم نموذجا لاتحاد السلوك مع المبادئ فى أكمل صورة.

٨ - الصبر

ومن الصبر على المستوى الشخصى إلى الصبر على أداء الرسالة، وجاء رسول السماء إلى رسول الأرض يذكيه من حيث

يذكره ويبلغه قول رب العزة: ﴿ وَٱتَّبِعْ مَا يُوحَىٰٓ إِلَيْكَ وَٱصْبِرْ حَتَّىٰ يَحْكُمَ ٱللَّهُ وَهُوَ خَيْرُ ٱلْحَٰكِمِينَ ﴾ [يونس: ١٠٩].

وحين يقلب وجهه بين مشركى قومه فيجد منهم الإعراض والصدود وهو يدعوهم إلى ما يصلح دنياهم وآخرتهم فيعتصر قلبه بالأسى والأسف فيأتيه قول الحق: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ وَلَا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلَا تَكُ فِى ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ ﴾ [النحل: ١٢٧].

ويؤذونه بفاحش القول وسوء العمل فينزل قرآن يدعوه للصبر: ﴿ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴾ [المزمل: ١٠].

وهل كان الله سبحانه وتعالى غير مستطيع لنصرة نبيه؟! حاشا لله أن ينازعه أحد فى ملكه لكنه الناموس، والقانون والقدرة التى أراد الله أن يجدها الناس فى أظهر صورها متجسدة فى نبيه ورسوله صلى الله عليه وسلم. ومن هذه القدرة تأسس العمل مع الجماعة وفى خلال العمل المكى التزمت الجماعة بالسلوك المطابق للمبادئ.

ولأن الفرد المسلم هو المرآة التى تعكس الإسلام فلابد أن يسعى للنقاء من أى شائبة يحسبها الجاهل أو الغافل أو الذى فى قلبه مرض على الإسلام.

والدعوة الإسلامية فى عهدها المكى صبرت وكان صبرها إيجابيا حتى تتجنب الصدام المسلح وتعطى فرصا كاملة لإبراز معالم الدعوة وحقيقتها ولو كان المسلمون قد سبقوا فى هذه المرحلة التى لم تأمرهم فيها السماء بالدفاع بالفعل وليس القول فقط عن الدعاة والعقيدة ربما ما تمكنت الدعوة من تحقيق النصر فى المرحلة الحاسمة وتم وأدها وهى مازالت نبتة ، وربما ما أمكنها أن يرى الناس وجهها الحقيقى الذى يمثل خير الإنسانية واندلعت المشادات داخل الأسرة الواحدة بين مدافع ومقاوم للإسلام الوليد وربما كان قد منح الكافرين الفرصة أن يتخذوا هذا دليلا على أن محمدا أشاع الصراع بين الأخ وأخيه والأب وابنه والزوج وزوجته ولما لم يكن هذا هدف الدعوة فقد طلب من الرسول الكريم ومن أتباعه تحمّل أذى الكافرين والصبر الجميل الذى ثوابه حسن الإيمان فى الدنيا والجنة فى الآخرة.. وتسجل كتب السيرة عشرات بل مئات من ملاحم صبر الرسول والمسلمين الأوائل فهؤلاء آل ياسر (عمار وأمه سمية وأبوه ياسر) كانوا من ضعفاء مكة أعلنوا إسلامهم وإيمانهم فوكل أمر تعذيبهم إلى بنى مخزوم يخرجون بهم جميعا إلى رمضاء مكة الملتهبة ويصبون عليهم جحيم العذاب ألوانا وفنونا فيمر عليهم الرسول أو يخرج إليهم حيث علم أنهم يعذبون وهو لا يملك دفع الأذى عنهم وما كان

صلى الله عليه وسلم مواسيا لهم فحسب حين قال: «صبرا آل ياسر إن موعدكم الجنة» بل كان يقرر حقيقة يعرفها ويؤكدها واقع يبصره ويراه ويتكرر الأمر فى السور المكية بالصبر ليعلم الأوائل والأواخر من أصحاب الدعوة أن منهج العمل مع الجماعة لتبليغ الدعوة هو: «الصبر الطويل.. والصبر الجميل» الذى يمكن الغير من التعرف على امتيازات الإسلام وإذا كان هناك ثمة ابتلاء للدعاة فى عصر من العصور فإنما هو تدريب ربانى لهؤلاء ليخلصوا الطاعة ويتم تنقيتهم وتمحيصهم من كل آفة وشبهة.

٩ - العلم بالقرآن

العلم بالقرآن أول صفة لابد أن يتحصلها الداعى إلى الله تعالى والمراد بهذا العلم النظر إلى القرآن أولا كمصدر للهدى والموعظة والعبرة وكذلك النظر فى سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم.. الصحيح منها من أقوال وأفعال ثم النظر فى سيرة خلفاء الرسول الراشدين والسلف الصالح من الصحابة والتابعين ثم يأتى بعد ذلك العلم الكافى من الأحكام وأسرار التشريع فإذا ما تحصل الداعية هذه العلوم ينتقل إلى مرحلة التبليغ عن الله تعالى، لكن ننبه إلى إن هذه المرحلة تستلزم بجانب تحصيل العلوم الاتصاف بالصدق فإذا ما اجتمعت الصفتان على الوجه الصحيح لا يخشى

على الداعية من زيغ فى العقيدة أو خطأ فى الحكم أو عجز فى إقناع النفوس المتطلعة إلى معرفة أسرار الأحكام الشرعية، أما الجاهل والكذاب فضالان مضلان يفسدان أكثر مما يصلحان بل لا يصلحان من الأصل إذ لا تمييز لجاهل بين الحق والباطل ولا معرفة عنده ترشده إلى إصلاح القلوب وتهذيب النفوس.. وعن الحسن البصرى أنه قال: «العامل على غير علم كالسائر على غير طريق، والعامل على غير علم يفسد أكثر مما يصلح» وفى الأثر: «من سلك طريقا بغير دليل ضل ومن تمسك بغير أصل ذل» أما الكاذب فلا خير فيه تطارده لعنة الله حين يرتكب كبيرة الكبائر وهى الكذب والتقول على الله: ﴿ قُلْ إِنَّمَا حَرَّمَ رَبِّيَ الْفَوَاحِشَ مَا ظَهَرَ مِنْهَا وَمَا بَطَنَ وَالْإِثْمَ وَالْبَغْيَ بِغَيْرِ الْحَقِّ وَأَن تُشْرِكُوا بِاللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِ سُلْطَانًا وَأَن تَقُولُوا عَلَى اللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴾ [الأعراف: ٣٣]

والكذب على الله سبحانه وتعالى بلا علم يكون فى أسمائه سبحانه وتعالى وصفاته ودينه وشرعه، يقول عز من قائل: ﴿ وَلَا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلَالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِّتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ ۚ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لَا يُفْلِحُونَ ﴿١١٦﴾ مَتَاعٌ قَلِيلٌ وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١١٧﴾ ﴾ [سورة النحل: ١١٦، ١١٧]. وهذا بيان من رب العزة أعلنه فى شأن الكاذبين

الذين يحللون ويحرمون بغير علم أو بعمد فى الإضلال أعازنا الله وإياكم منهم ومن فتنتهم.

١٠ - العمل والحلم

فى كلام سابق قلنا إن صفة العلم بالقرآن هى أولى صفات من يضطلع بالعمل الدعوى ويأتى فى الترتيب بعد هذه الصفة: العمل والمقصود هنا أن يعمل الداعى بما يعلمه فلا يكذب فعله قوله ولا يخالف ظاهره باطنه ولا يأمر بشىء ما لم يكن هو أول العاملين به ولا ينهى عن فعل ويأتيه أو يسعى إليه أو يقع فيه كما قال مالك بن دينار: «إن العالم إذا لم يعمل بعلمه زلت موعظته عن القلوب كما يزل القطر عن الصف»، وبالقياس من حث على التحلى بفضيلة وهو عاطل عنها لا يقال قوله إلا بالرد ولا يعامل إلا بالإعراض والإهمال ويضع نفسه موضع حيرة البسطاء وسخرية العقلاء وإذا ما تناول شيئا وقال للناس لا تتناولوه اتهمه الناس فى دينه وعلمه وورعه وازداد حرصهم على ما نهوا عنه فيقولون «لولا أنه أطيب الأشياء وألذها ما استأثر به لنفسه ومنعها عنا».. وكذلك الداعى إذا خالف فعله قوله لذلك لابد أن يكون حريصا على التخلق بما يدعو إليه، وفى الأثر أن بعض الدعاة لم يذكر لجمهور دعوته فضائل العتق حتى أمكنه

الله من شـراء رقيق فأعتقـه وبعدها ذكر لهم فضل من أعتق لله تعالى حتى يكون له تأثير فى قلوبهم.

فالدعـوة إلى صالح الأعمال ومكارم الأخلاق تربية، والتربية النافعـة إنمـا تكون بالعمـل لأنها مبنية على القـدوة الصالحة والأسـوة الحسـنة لا بمجرد القول والداعى مـن المدعو يجرى مجـرى الطابع من المطبوع وفـى آيات الذكر الحكيم ﴿كَبُرَ مَقْتًا عِندَ ٱللَّهِ أَن تَقُولُوا۟ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾ [الصـف: ٣]، والمقـت أشـد الكراهة والمعنـى أن الله العزيز الكريـم يحذرنا من ذنب عظيـم وهـو أن يختلـف العمل عما ندعـو إليه وهـو فى هذا يخاطب المؤمنـين ويؤكد على هذا فيقول عز من قائل: ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لِمَ تَقُولُونَ مَا لَا تَفْعَلُونَ﴾[الصـف: ٢] فهلا قرنا القول بالعمل.!!!

..والحلم

والحلم أيضا وسعة الصدر من صفات الداعية فكمال العلم فى الحلـم ولين الكلام مفتاح القلـوب المغلقة وعلاج النفوس المريضة ولا يكـون ذلك إلا إذا اتصف الداعية نفسـه بالهـدوء واطمئنان النفـس والقلب، لا يسـتفزه الغضب ولا يسـتثيره الحمق حتى

لا ينفر المدعو أو تشمئز نفسه وحسبك فى هذا قول الله تعالى لإمام الدعاة رسول الله عليه الصلاة والسلام فى قرآنه الكريم ﴿كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ ٱلْقَلْبِ لَٱنفَضُّوا۟ مِنْ حَوْلِكَ﴾ [آل عمران: ١٥٩]، ودعوته للمجادلة حتى مع الكفار والمشركين بالتى هى أحسن حتى تنقلب العداوة إلى الموالاة الحميمة ولو كان الداعى سيئ الخلق جاف الطبع قاسى القلب غليظ القول فلن يجتمع حوله الناس بل سينصرفون من حوله ويحرمون الهداية بأنوار دينهم وربما يعيشون ويموتون جهلاء وذلك هو الشقاء.. أعاذنا الله وإياكم منه.

١١ - الشجاعة..والعفة..والقناعة

هل يمكن أن يخيف الباطل الداعى إلى الحق ؟! فى حديث عبادة بن الصامت رضى الله عنه أنه قال: بايعنا رسول الله عليه الصلاة وسلام على أن نقول الحق أينما كنا، لا نخاف فى الله لومة لائم وروى ابن حبان فى صحيحه عن أبى ذر الغفارى رضى الله عنه أنه قال: أوصانى خليلى بخصال من الخير: أوصانى ألّا أخاف فى الله لومة لائم، وأوصانى أن أقول الحق وإن كان مرا. هذه وصايا أعظم الدعاة لقادة الدعوة الإسلامية وجنودها الأوائل وهو أيضا صلى الله عليه وسلم الذى قال لأصحابه:

«لا يحقرن أحدكم نفسه.. قالوا يا رسول وكيف يحقر أحدنا نفسه ؟! قال: يرى أن لله عليه مقالا ثم لا يقول فيه، فيقول الله عز وجل يوم القيامة: ما منعك أن تقول فى كذا وكذا؟ فيقول: خشية الناس، فيقول له رب العزة: فإياى كنت أحق أن تخشى !»[1].

فهل يخشى الداعى الناس ولا يخشى رب الناس ؟! إذا حدث هذا فقل على أمة الإسلام السلام، أو كما قال رسولها الكريم محذرا: «إذا رأيت أمتى تهاب أن تقول للظالم يا ظالم فقد تودع منهم» [2].

والعفة صفة أخرى من صفات الداعية، والعفة مشتقة فى اللغة من لفظ: عف أى كف عما لا يحل وكف عن المحارم والأطماع.

وهى أيضا اليأس مما فى أيدى الناس والاستغناء عنه والاكتفاء بما فى اليد ومن يفعل ينال من الناس محبتهم واحترامهم، أما إن كان المرء غير ذلك فلن يناله من الناس إلا احتقارهم ومقتهم وصار عندهم مرذولا مهانا لأنه هان على نفسه قبل أن يهون على الناس أو كما قال الشاعر:

ومن يهن يسهل الهوان عليه ما لجرح بميتٍ إيلامُ

(١) ضعيف الترغيب و الترهيب – الألبانى ٢/٥٢

(٢) رواه الحاكم فى المستدرك

وهـذا هو غيـه الذى يصدق عليه قول أبو سـعيد الحسـن البصـرى رحمه الله حين قال: لا يزال الرجل كريما على الناس حتـى يطمع فى دينارهـم، فإذا فعل ذلك اسـتخفوا به وكرهوا حديثه وأبغضوه. وكان أعرابى قد سـأل أهل البصرة من سيدكم؟ فأجابوه: الحسن. فعاد لسؤالهم: بم سادكم ؟! فأجابوه: احتاج الناس إلى علمه واستغنى هو عن دينارهم فقال: ما أحسن هذا.

إذن فواجب الداعى نزاهة النفس عن شبهة المكاسب والاكتفاء بما تيسر عن ذل المطالب فالأولى إثم والثانية أجر، والأجر أجدر به من الإثم كما أن العز أليق به من الذل.

وصفة القناعة ليسـت بعيـدة عن حديث العفـاف فالداعى لا يجـب ولا ينبغى له أن يكون حريصـا على الدنيا منهمكا فى طلبهـا أما إذا فعـل الداعى ذلك أو ذهب فى هـذا الاتجاه فقد تحول من داع إلى الحق إلى داع إلى الضلال والإفسـاد واسـتبدل النافع بالضار وما هكذا يكون الداعى إلى الله تعالى.

وفى الأثر أن محمد بن واسع البحر رحمه الله كان يبل الخبز اليابـس بالماء ويأكله وهو يردد: من قنع بهذا لم يحتج إلى أحد. ومـن لم يقنـع ؟! أو مـن يطمع ؟! يصدق عليـه قول الحكيم: «وجدت أطول الناس غما الحسود وأهنأهم عيشا القنوع وأصبرهم

على الأذى الحريص «إذا طمع»، وأخفضهم عيشا أرفضهم للدنيا وأعظمهم ندامة العالم المفرط. وقال سفيان الثورى وإذا لم يقنع المرء؟! يجيب العارفون.. لن يأخذ من الدنيا إلا ما قسمه له الله منها وبعد ذلك لا يعذب إلا نفسه ولا يكدر إلا عيشه ولن يحصل إلا على نصيبه الذى وزعه الله عليه فى اللوح المحفوظ ليستوفى حقه ويذهب إليه يوم القيامة فيحاسب على طمعه وعدم قناعته ولله در من قال: «القناعة كنز لا يفنى» أو «عز من قنع وذل من طمع» !

١٢ - قوة البيان وفصاحة اللسان

فإذا ما امتلك الداعى صفات العلم بالقرآن، والعمل بعلمه، والحلم، وسعة الصدر، والشجاعة، والعفة، والقناعة... لابد له أن يتميز بقوة البيان وفصاحة اللسان. وفى الكتاب أن رسول الله موسى سلام الله عليه سأل ربه ﴿وَٱحۡلُلۡ عُقۡدَةٗ مِّن لِّسَانِي ٢٧ يَفۡقَهُواْ قَوۡلِي ٢٨﴾ [طه: ٢٧ - ٢٨] حيث كان هناك حبسة لغوية وعندما اضطلع الرسول بأمر الرسالة سأل ربه أن يمنحه العافية منها حتى يوصل رسالته ويصمد أمام فرعون فى إبلاغ رسالته والإبانة عن حجته والإفصاح عن أدلته فإن مدار الأمر

على البيان والتبيين والإفهام والتفهيم ورسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم علمه شديد القوى فكان فصيحا جميل الكلام على رغم أميته، ونترك صاحب «الشفا» يصف لنا فصاحة إمام الدعاة فيقول: وأما فصاحة اللسان وبلاغة القول فقد كان صلى الله عليه وسلم من ذلك بالمحل الأفضل والموضع الذى لا يجهد سلامة طبع وبراعة منزع وإيجاز مقطع ونصاعة لفظ وجزالة قول وصحة معان، وقلة تكلف، أوتى جوامع الكلم، وخص ببدائع الحكم وعلم ألسنة العرب يخاطب كل أمة منها بلسانها ويحاورها بلغتها ويباريها فى منزع بلاغتها.

كان صلى الله عليه وسلم يخاطب كل قوم بلهجتهم ويتفوق عليهم فى الفصاحة والبيان وهو صلى الله عليه وسلم مأمور بذلك ليبين للناس ما أنزل إليهم وحين نستعيد السيرة العطرة نكتشف فيها مواضع البلاغة فحين يقول الرسول الكريم: » الناس كأسنان المشط«[1] ، فقد لخص فى ثلاث كلمات مبادئ العدالة الاجتماعية وحقوق الإنسان، وعلى هذا القياس يستعيد ويستعين المؤمن ويستأنس بسيرة رسوله حين يقول: «اسلم تسلم يؤتك الله

(١) رواه ابن عدى في الضعفاء، وحكم عليه بالوضع – أى إنه مكذوب – وأخرجه ابن الجوزى في الموضوعات، وتعقبه السيوطى بذكر طريق أخرى له، ولكنها ضعيفة جدا، كما قال العلامة الألبانى.

أجـرك مرتين» أو كما روى عَنْ جَابِر، أَنّ رَسُـولَ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَـلَّمَ قَالَ: « إِنَّ مِنْ أَحَبِّكُمْ إِلَيَّ وَأَقْرَبِكُمْ مِنِّي مَجْلِسًـا يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَحَاسِـنَكُمْ أَخْلَاقًا، وَإِنَّ أَبْغَضَكُمْ إِلَيَّ وَأَبْعَدَكُمْ مِنِّي مَجْلِسًا يَوْمَ الْقِيَامَةِ الثَّرْثَارُونَ وَالْمُتَشَدِّقُونَ »، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ قَدْ عَلِمْنَا الثَّرْثَارُونَ، وَالْمُتَشَدِّقُونَ، فَمَا الْمُتَفَيْهِقُونَ ؟ قَالَ: «الْمُتَكَبِّرُونَ» وقيل للرسـول صلى الله عليه وسـلم يوماً ما رأينا الذى هو أفصح منك فقال: وما يمنعنى ؟ وإنما نزل القرآن بلسان عربى مبين.

١٣ - التحصين بالعلم المجتمعى

وإذا ما توجه الداعى إلى الله تعالى لناس غير ناسه أو مجتمع غير المجتمع الذى ولد وشب فيه عليه أن يعلم أحوال من توجه إليهم بدعوته، يعرف شيئا من طبائع بلادهم وأخلاقهم وعاداتهم الاجتماعية واستعدادهم لاستقباله، فمثل هذا الأمر سوف يسهل له كثيرا من الأمور، ويقوده سـريعا إلى مد جسـور التواصل مع جمهوره المسـتهدف، وإذا كان العامة يصفون الغريب بأنه أعمى ولـو كان بصيرا، فالمقصود هنا بالعمى الناتج عن الجهل، فالعلم فى هذه الحالة يقصر المسافات كما يقصر الوصول للغايات ووسائل هذا العلم الآن متاحة وميسورة مع الانفتاح الهائل لوسائل الإعلام

حتى إن العالم كما يقولون أصبح قرية صغيرة تتدفق فيه المعلومات بيسر وسهولة.. على الداعى أيضا أن يعرف قبسا من علم التاريخ العام ويعرف الفساد فى العقائد والأخلاق والعادات فيبنى دعوته على أساس صحيح ويملك الحجة التى يدعم بها كلامه فيبلغ به غايتـه من التأثير فى أفراد ومجتمع دعوته وينقل هؤلاء المدعوين من حال إلى حال.

وإذا كان القـرآن الكريـم فيه كثير من خبر مـا قبلنا من أمم ومملـوء بعبر التاريخ لغاية هداية الناس وتجنبهم الوقوع فى ذلك من قبلهم فالعلم به وبتفسـير حوادثه التاريخية مطلوب والجاهل به لا يصلح أن يكون داعيا إلى رسالة الإسلام ولا مرشدا فى الأمور العامة أو على الأقل فقدانه لهذه الملكة على الوجه الذى يرتجى قبوله ونفعه.

وعلم النفس يسـاوى علـم التاريخ فى فائدتـه ونفعه، وعلى الداعـى أن يعلم ويتعلم هذا العلم حتى يفهم ما يصدر عن الناس فى العديد من الأحوال بإرادتهم أو بدونها، والأصل فى الإنسان أن يأتـى عمله تابعا لعلمه ولكـن كثيرا ما يخالف عملهم علمهم بمعنـى أنهـم يعرفون أن أمـرا من الأمور ضـار ويلغونه أو نافع ويهجرونـه فما السـبب وراء ذلك ؟، وهل يحسـن دعوة هؤلاء

إلى الخير وإقناعهم بهجر ومفارقة الشـر؟! الإجابة عن مثل هذه الأسئلة يجدها الداعى فى علم النفس البشرية، وقديما كان حكماء العرب لديهم هذا العلم بمسميات أخرى مثل الفطرة وذكاء القِرية فلما جاءهم القرآن بآياته والرسـول صلى الله عليه وسـلم بسنته زادهم علما، وفهما ونجد هذا فى أعمال وسـيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ويمكننا أن نفسـر اليوم أفعالهم وأقوالهم على ضـوء علم النفس الحديث، وسـوف نجد حكمتهم قد سـبقت هـذه العلوم الوضعية بمئات السـنين لكن هـذا لا يمنع الداعى مـن أن يتزود بأحدث ما وصـل إليه العلم، ويجدد معلوماته فى هذا الشـأن أولا بـأول مع اختيار ما يتناسـب منها مع عقيدتنا وتوجهاتنا الاجتماعية وحاجات الإنسان الفطرية كما فطرها الله عليـه ليس كما رتبها الغرب فى بعـض بحوثه. أيضا علم تقويم البلـدان من العلوم المهمة ليعد الداعى عدته لكل بلد يشـد إليها رحاله إذا أراد السفر.

ثـم يأتى علـم الأخلاق ويبحث فيـه الداعى عـن الفضائل النفسـية حتى يربـى وكيفية تربية مجتمع دعوتـه عليها ويعلم أيضا النقائض حتى يرشـد مجتمع دعوته إلى تعريفها، وإذا كان هـذا العلم لازما لرجال الدين فهـو للدعاة ألزم لأن ميدان عملهم

الرئيسى معالجة اعوجاج النفوس وتهذيبها، وفى القرآن وصحيح السنة وسيرة الرسول صلى الله عليه وسلم والصحابة ما يغنى عن كثير من الكلام فى هذا الأمر.

معرفة الملل والنحل ومذاهب وعقائد الأمم وشىء من علم مقارنة الأديان حتى يتبين للداعى الباطل من الحق فى عقائد البشر وعقائد المتوجه إليهم بدعوته ومن لا يقف من الدعاة عند هذا العلم فلن يستطيع أن يخاطب مجتمع دعوته فكيف يقنعهم بصحيح دعوته إذا كان لا يعرف المعوج من عقيدتهم؟!.. لغات الأمم أيضا من العلوم التى لابد أن يتقنها الداعى أو على الأقل لغة من يتوجه إليهم بالدعوة وفى السيرة أن الرسول عليه الصلاة والسلام أمر الصحابة بتعلم لغة اليهود «العبرانية» الذين جاوروا المجتمع المسلم فى المدينة، فعن زيد بن ثابت أن النبى عليه الصلاة والسلام أمره أن يتعلم كتاب اليهود حتى كتب «زيد» للنبى كتبه وأقرأه كتبهم «الرسائل المتبادلة بين الرسول واليهود».

وفى الأثر أن أبا جمرة كان يترجم بين ابن عباس وبين الناس وكان يقول إن معرفة لغة الناس الأصلية تزيد كمالا فى الفهم عنهم ومعرفة حقيقة شأنهم، ولا يقال يمكن أن يستغنى الداعى عن تعلم لغات الأمم بالمترجمين غير المسلمين لأنه حتى

إذا ظفر الداعى بهذا المترجم الأمين فكيف له أن يضمن أن يفهم هذا المترجم حقيقة الدين عند الترجمة، والواجب هنا أن تشمل كل جماعة من جماعات الدعوة مسلمين عارفين بلغات الأقوام المبعوثين إليها حتى يكفيه هذا شر الحاجة إلى ترجمة الأجنبى، وهذا ما سبقت إليه جمعيات الدعوة والتبشير النصرانية ففيها أفراد يعرفون لغات الأمم وإليها ينهلون كتبهم ونشراتهم ويخاطبون الناس بلغاتهم الإقليمية.

أيضا علم الاجتماع من العلوم المهمة حيث يبحث منه الداعى عن أحوال الأمم فى بداوتها وحضارتها وأسباب ضعفها وقوتها وتقدمها وتأخرها، ويكفى أن رائد هذا العلم العربى المسلم العالم ابن خلدون مثلا اقتضى الداعى المسلم أثره. وعلى الجملة يلزم الداعى أن يعرف أحوال الناس حتى يرشد كل فريق بما يناسبه ويصحح أخطاءهم ويصلح من قلوبهم ويعالج نفوسهم فهو مثل الطبيب يتعامل مع الأمراض فإذا كان ماهرا امتلك علوم الطب حتى يصل بمريضه إلى بر الشفاء.

١٤ - قوة الثقة بالله تعالى

ثقة الداعية بالله تعالى فى وعده ورجائه بالحصول على الفائدة مهما طال العلاج وكبرت المصاعب إذا ما تمكنت من نفسه تقوى

نشاطه وتبعث فيه الهمة وتنبهه إلى انتهاز كل فرصة بما يناسبها وتمنحه اليقين بأن ما لم يؤت ثماره اليوم فغدا سوف يثمر، وإن الباطل حتما إلى زوال ولا بد من يوم يظهر فيه الحق على الباطل، وإن دولة الباطل ساعة ودولة الحق إلى قيام الساعة، وإن أنصار الحق لا يغلبون ما داموا معتصمين به مجتمعين عليه أو كما قال الإمام على كرم الله وجهه: لا قيام للباطل إلا فى غفلة الحق.

ورسولنا الكريم صلاة وسلام عليه سيد الداعين إلى الله لم يثن عزمه ولم يثبط همته فى دعوته إلى الله تعالى عناد أهل الغنى والضلال ومقابلتهم له بالكفر والإنكار وإيقاع الأذى به وبأصحابه المجاهدين المخلصين الأخيار هؤلاء الذين ثابروا وصابروا فكان لهم فى نهاية الأمر الظفر والفلاح والنصر بعد الكفاح.

وصدق الله وعده حين قال فى قرآنه العظيم: ﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تَنصُرُواْ ٱللَّهَ يَنصُرۡكُمۡ وَيُثَبِّتۡ أَقۡدَامَكُمۡ ﴾ [محمد: ٧]، وما نريد أن ننبه عليه هنا هو ألا يجعل الداعى اليأس يتسرب إلى قلبه فى صلاح أحوال المتوجه إليهم بدعوته، وألا يشعر فى أى مرحلة من مراحل دعوته أنه يحرث فى البحر أو أنه لا طائل من سعيه بل يمضى فيما عزم الأمر عليه مهما قاسى من شدائد وتحمل

من مشـاق ويفعل كما يفعـل الطبيب الناصح مريضه حين يصف لـه الدواء على قدر الداء فإن لم يفده يصف له غيره وهكذا حتى يشـفى بإذن الله ويبرأ من دائه، والتجربة الإنسانية تدلنا إلى أن أقسـى القلوب تلين وتخشـع بتكرار النصح، والتذكير بالعواقب ينفع، بإذن الله تعالى، أو كما قال سـبحانه ﴿ وَذَكِّرْ فَإِنَّ ٱلذِّكْرَىٰ تَنفَعُ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴾ [الذاريات: ٥٥].

١٥ - التواضع

التواضع ليسـت فقط صفة مطلوبة للمسـلم بوجه عام وللدعاة بوجـه خاص فهى أليق وألزم فالذى يعلـم الناس لا بد أن يبدأ بنفسه والله يكره أن يقول العبد شيئا يناقض فعله.

والإعجاب بالنفس نقص ينافى الفضل ويقود الإنسـان للتكبر على خلق الله، ورسـول الإسلام صلى الله عليه وسلم يقول: «إن العجب ليأكل الحسـنات كما تأكل النار الحطب». وإذا ما كان العجب نابعـا من اغترار الداعية بعلمـه فالعلم أوجب للتواضع وأدعى للجد فى طلبه والذى يغتر بعقله أو يعتقد أنه ملك ناصية العلم فقد توقف نموه وأسنت معارفه، أو كما قال رسول الله صلى الله عليه وسـلم: «قليل العلم خير من كثـير العبادة وكفى بالمرء

علما إذا عبد الله عز وجل وكفى بالمرء جهلا إذا أعجب برأيه»، وعن أبي هريرة رضى الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «ما نقص مال من صدقة، وما زاد الله عبدا بعفو إلا عزا، وما تواضع أحد لله إلا رفعه الله» رواه مسلم... صدقت يا رسول الله فيما قلت ووصفت فأحسنت الوصف إعجاب المرء بنفسه واحدة من الثلاث المهلكات..

ولقد أدرك الصحابة الأخيار ما حذر منه إمامهم وإمام الدعاة ونقلوا عنه للسلف الصالح فعن خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم الصديق أبو بكر رضى الله عنه أنه قال: «وجدنا الكرم فى التقوى والغنى فى اليقين والشرف فى التواضع» وعن خليفة رسول الله عمر بن الخطاب رضى الله عنهم أجمعين قال: «تعلموا العلم وتعلموا للعلم السكينة والحلم، وتواضعوا لمن تتعلمون منه ليتواضع لكم من تعلمونه، ولا تكونوا من جبابرة العلماء فلا يقوم علمكم بجهلكم».

هذه تعاليم الداعية العظيم ورثها عنه السلف الصالح خيرة الصحاب والتابعين، قالوا مثل ما قال أولهم وتابعوا قولهم بالعمل وتابع عملهم من جاء بعدهم من الأولين يرددون قول من سبقهم حين يقولون: «من تكبر بعلمه وترفع وضع الله به ومن تواضع بعلمه رفعه الله به». وسئل الفضيل عن التواضع فقال: «أن تخضع للحق وتنقاد

له وتقبله ممن قالــه» وقال ابن المبارك: «رأس التواضع أن تضع نفســك عند من دونك فى نعمة الدنيا، حتى تعلمه إنه ليس لك عليه بدنياك فضل وأن ترفع نفسك عمن هو فوقك فى الدنيا حتى تعلمه أن ليس له بدنياه عليك فضل».

وفى منثور الحكم: «إذا علمت فلا تفكر فى كثرة من دونك من الجهال، ولكن انظر من فوقك من العلماء» والفوقية هنا ليس لها حدود أو كما أخبرنا رب العزة ﴿وَفَوْقَ كُلِّ ذِى عِلْمٍ عَلِيمٌ﴾ [يوسف: ٧٦]، وعن هذا النص القرآنى قال أهل التأويل: يعنى فوق كل ذى علم من هو أعلم منه حتى ينتهى ذلك إلى الله تعالى الذى يعلم الســر وما يخفى ولا يعزب عن علمه شيئا فى الأرض ولا فى الســماء، وفى قصة نبى الله موســى والعبــد الصالح آية للعلمــاء وحكمة وموعظة للناس ألا يفــتروا بعلمهم ويتواضعوا لمن يحسبونه أقل منهم لعلمهم بالغيب رحمة من الله ومنة.. ﴿وَقُل رَّبِّ زِدْنِى عِلْمًا﴾ [طه: ١١٤].

١٦ - عدم البخل بالعلم!

وهــذه أيضا صفة مهمة من صفات الداعية وآدابه... فعن أبى هريــرة رضى الله عنه أنــه قال: (لولا أية فــى كتاب الله تعالى

ما حدثت أحدا بشيء أبدا) والآية التى أشار إليها أبو هريرة فى حديثه نزلت فى أحبار اليهود لكن حكمها عام كما تدل الأخبار وفى الآية يقول رب العزة: ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَآ أَنزَلْنَا مِنَ ٱلْبَيِّنَٰتِ وَٱلْهُدَىٰ مِنۢ بَعْدِ مَا بَيَّنَّٰهُ لِلنَّاسِ فِى ٱلْكِتَٰبِ ۙ أُو۟لَٰٓئِكَ يَلْعَنُهُمُ ٱللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ ٱللَّٰعِنُونَ ﴾ [البقرة: ١٥٩].

والكتم والكتمان هو ترك إظهار الشيء قصدا مع العلم بحاجة الناس لمعرفته، والبيانات التى يقصدها الحق هى: الآيات الدالة على الحق ومنها على سبيل المثال ما أنزله الله على موسى وعيسى سلام الله عليهما فى أمر محمد صلى الله عليه وسلم وفى رسالته الخاتمة، أما الهدى فهو كل ما يهدى العبد إلى الإيمان بالله ورسوله بعد أن بين رب العزة سبل هذا الهدى فى القرآن.

هذا هو العلم الأول.. علم الإيمان بالإلوهية والربوبية والتوحيد ومن يكتم هذا العلم عمدا فمصيره اللعنة يلعنهم الله أى يبعدهم عن رحمته ويذيقهم أليم نقمته ويلعنهم اللاعنون من الملائكة وأهل الأرض أى يدعون عليهم بالإبعاد عن رحمة الله.

والبينات والهدى أيضا يشملان علم الدنيا أو العلم الذى يتعامل مع معطيات الحياة، وأولها الشريعة وهو العلم الذى ينظم علاقات الناس فيما بينهم وبين ربهم وفيما بينهم وبين

بعضهم البعض، والله سبحانه وتعالى يأمرنا أيضا بإظهار هذا العلم ويعلمنا بحرمة كتمانه، والسيرة أيضا تفعل نفس الشيء... فقد روى عن النبى صلاة الله وسلامه عليه أنه قال: (من علم علما فكتمه ألجم يوم القيامة بلجام من النار). وفى رواية أخرى (من سئل عن علم فكتمه، جاء يوم القيامة ملجما بلجام من نار). وروى عن على رضى الله عنه أنه قال: (ما أخذ الله العهد على أهل الجهل أن يتعلموا حتى أخذ على أهل العلم أن يعلموا) وقال بعض الحكماء: (إذا كان من قواعد الحكمة بذل ما ينقصه البذل فأحرى أن يكون من قواعدها بذل ما يزيده البذل).

وفى منثور الحكم (من كتم علما فكأنه جاهله، ثم له بالتعليم نفعان: (أحدهما) ما يرجوه من ثواب الله تعالي.

وروى ابن مسعود عن النبى عليه الصلاة والسلام أنه قال: (تعلموا العلم وعلموه فإن أجر العالم والمتعلم سواء)... قيل وما أجرهما.. قال: (مائة مغفرة ومائة درجة فى الجنة). والنفع الثاني: هو فى زيادة العلم وإتقان الحفظ. كيف ؟.. أجاب الخليل ابن أحمد أحد كبار العلماء العرب فقال: (اجعل تعليمك دراسة لعلمك واجعل مناظرة المتعلم تنبيها لما ليس عندك).

وإذا ما كان ميدان الداعية الرئيسى هو علوم الدين فإذا استكملها بعلوم الدنيا فقد استكمل المنظومة وأتاح له هذا أن

ينطلق فى أحكامه من قاعدة أوسع وإدراك أعمق فلا يكتفى بما فى الكتب بمعزل مع حياة الناس ولا تنغمس فى حياة الناس وهو يجهل ما فى الكتب أو يدعو إلى الآخرة ويهمل أسباب الدنيا والعكس... وما ساد الغرب على الشرق فى أمر الدنيا إلا بأخذه بأسبابها والمسلم أولى بذلك... فالدعوة الأولى التى خاطب فيها رب العزة نبيه على الأرض كانت للعلم والتعليم (اقرأ) قالها ملك السماء لرسول الأرض.

١٧ - الوقار والرزانة وضبط اللسان

لا شك أن الداعى إلى الله قمة سامقة فى نظر المدعوين ونفوس السامعين والمتابعين ولما كان اللسان يعكس ما تحمله النفس من تهذيب وتأديب وعلاج النفس مطلوب قبل اللسان. (وهل يكب الناس على وجوههم فى النار إلا حصاد ألسنتهم).. هكذا حذر الرسول الكريم صلى الله عليه وسلم أتباعه والكلمة تخرج من الفم كالثور الهائج لا يستطيع الإنسان أن يردها، وقد تخرج لا يلقى المسلم لها بالا فتهوى به إلى سابع أرض، ثم إن رب العزة سبحانه وتعالى

وصف الكلمة فقال عز من قائل: ﴿ أَلَمْ تَرَ كَيْفَ ضَرَبَ ٱللَّهُ مَثَلًا كَلِمَةً طَيِّبَةً كَشَجَرَةٍ طَيِّبَةٍ أَصْلُهَا ثَابِتٌ وَفَرْعُهَا فِى ٱلسَّمَآءِ

﴿٢٤﴾ تُؤْتِيٓ أُكُلَهَا كُلَّ حِينٍۭ بِإِذْنِ رَبِّهَا ۗ وَيَضْرِبُ ٱللَّهُ ٱلْأَمْثَالَ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٥﴾﴾ [إبراهيم: ٢٤ - ٢٥].

هذا هو حكم الكلمة، والكلام فيه حلال وحرام وفيه فضول وتزيد ولغو، لذلك ينبغي على الداعي أن ينتبه دائما لحصاد لسانه ووقار نفسه ورزانة عقله فيمسك عن فضول الكلام وكثرة الإشارة والحركة فيما يستغنى عن الحركة فيه، وينبغي أن يتعلم فضيلة الإصغاء إذا لم تكن من ملكاته، الإصغاء في الحوار وعند الاستفهام، والتوقف عند الجواب وعدم التسرع والمبادرة في جميع الأمور والتحفظ من التبذل بالهزل القبيح ومخالطة أهل الهزل والتبذل أو حضور مجالسهم، وينبغي عليه إمساك اللسان عن الفحش في القول وللقبيح والمزاح السخيف خاصة في المحافل ومجالس الاحتشام، فلا كرامة لمبتذل ولا هيبة لمن يسرف في المزاح أو يفحش فيه.

كذا على الداعي أن ينأى بنفسه ويترفع عن الجلوس في الأسواق وقوارع الطرق من غير ضرورة فإن الإكثار من ذلك يخل بالكرامة وأعظم الناس قدرا عند الخلق من ظهر اسمه وخفي شخصه، وعلى الإجمال... فالداعي يجب أن يتحلى بالسكينة والوقار في جميع أحواله في سكوته وكلامه... في سكونه وفي حركته فهذا أدعى للهيبة والإجلال عند الناس وأدعى للانتفاع به.

١٨ - علو النفس والصبر

فـــى دعوته إلى الحق لاقى إمـــام الدعاة محمد صلى الله عليه وســـلم كثيرا من الشـــدائد والأذى وصادف كثيرا مـــن العقبات، لكن شـــيئا من ذلك لم يكن ليضعف من عزيمته أو يثبط من همته أو يثنيـــه عن دعوته، وكذلك الداعـــى إلى الحق عليه أن يقتدى برســـوله وســـنته ويضع فى اعتباره أنه مصلح من المصلحين وأن المدعوين ينظرون ويقتادون بصفاته.

وإذا كان كل إنسان يجذبه طبعه ويحمله تكوينه النفسى إلى عمل مـــا يميل إليه فعليه أن يعلم أن مقـــام الدعوة إلى الله أحوج ما يكون إلى أن يعكس عن نفســـه صورة يؤطرها علو الهمة وعظمة النفس وأن يســـتصغر ما دون الأعالى من الأمور ويترفـــع عن الدنيا ويغضب عند الإحســـاس بالنقص ويغار لانتهاك الحرمات وكلما كان الداعى أقوى نفسا وأعلى همة كان أمضى وأقدر على التأثير فى نفوس السامعين.

.. والصبر

إن أول وأعلـــى درجات الصبر هـــو حبس النفس على طاعة الله تعـــالى حتى لا تفارقها ثم الصـــبر عن معصية الله تعالى حتى لا تقاربهـــا ثم الصبر على قضائه ســـبحانه وتعالى حتى لا تجزع ولا تسخط على قضائه سبحانه وتعالى. والصبر من أشرف الأخلاق

وأعلاها وهو بجوار أنه موهبة من الله لبعض خلقه فهو أيضا خلق (مفرد أخلاق) مكتسب يحمل العاقل عليه نفسه ويروضها حتى يصبح طبعا فيها لا يحتاج – وقت الحاجة إليه – إلى طلب.

وفى كتاب الله تعالى أكثر من موضع يأمر فيه رب العزة نبيه بالصبر فيقول عز من قائل: ﴿ فَٱصْبِرْ كَمَا صَبَرَ أُوْلُواْ ٱلْعَزْمِ مِنَ ٱلرُّسُلِ ﴾ [الأحقاف ٣٥]. وفى قوله تعالي: ﴿ وَٱصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلَّا بِٱللَّهِ ﴾ [النحل: ١٢٧].

وفى قوله تعالي: ﴿ فَٱصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ ٱللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ ٱلَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ ﴾ [الروم ٦٠]. لا يستخفنك يا محمد (صلى الله عليه وسلم) الذين لا يوقنون ما تتلو عليهم من آيات بينات فيكذبونها ويؤذونك بأباطيلهم.. لا يحملنك على القلق هؤلاء الضالون الجاحدون ولا يدهشنك صدور هذا عنهم ومنهم واصبر على أفعالهم السيئة لأن وعد الله بإظهار دينه وإعلاء أمره حق متحقق لا محالة.

وعلى الإجمال فقد أوجب رب العزة على رسوله (صلى الله عليه وسلم) المثابرة وحرم عليه القلق والضجر مما يناله من السفهاء.

ومن جانبه فقد احتمل صلوات الله وسلامه عليه فى دعوته إلى الحق كثيرا من الأذى والشدائد، كما أسلفنا فصبر عليه حتى أنجز الله وعده وأتم رسوله رسالته.

ومن قبل رسولنا الكريم صلى الله عليه وسلم كان رب العزة قد رفع شأن أمة «بنى إسرائيل» وجعلها مثالا للتوحيد فى الأرض أخبر عنهم رب العزة فقال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ [السجدة: ٢٤].

لكن أفراد هذه الأمة لم يصبروا على حمل الأمانة وتبليغ الرسالة فانحرفوا بها فحقت عليهم اللعنة وغضب الله أعاذنا وأعاذكم الله منهم ومن خطاياهم.

١٩ - التقوى والأمانة والتحرز بطاعة الله

يقول رب العزة فى كتابه الكريم ﴿ إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ ﴾ [فاطر: ٢٨]. فالخشية هى ثمرة العلم بالله تعالي، ورسول الله صلى الله عليه وسلم هو القائل: «إنى أعلمكم بالله وأشدكم له خشية»، ومن مظاهر خشية إمام الدعاة رسول الله صلى الله عليه وسلم دوام استغفاره وطول قيامه وهو الذى بشره رب العزة بأنه غفر له ما تقدم من ذنبه وما تأخر.

هذا حال رسول الله صلى الله عليه وسلم.. فما بال العباد؟ يقول رب العزة: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنْ تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَلْ لَكُمْ

فُرْقَانًا وَيُكَفِّرْ عَنكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ۗ وَاللَّهُ ذُو الْفَضْلِ الْعَظِيمِ ﴾ [الأنفال: ٢٩].

فالعمل بمقتضى الدين يكسب الإنسان ملكة العلم والحكمة وبهما ينال الخير والسعادة فى الدارين «الدنيا والآخرة».

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن النبى صلى الله عليه وسلم كان دائم الدعاء «اللهم إنى أسألك الهدى والتقى والعفاف والغنى»، واستهداء بسيرة رسول الله فلا يصح للداعية أن يكون فاسقا فى دينه، قبيحا فى سيرته، متهما فى أمانته فإن منزلته كبيرة ورتبته خطيرة، ومتى لم تكن للداعى تقوى تمنعه من ارتكاب المعاصى والوقوع فى الآثام وأمانة تمنعه عن اقتحام المحارم كان الضرر به أكثر من الانتفاع، وطال شره نفسه وأنفس الناس الذين بسليقتهم وطبيعتهم لن يقبلوا منه قولا فى الدين، وهنا يفشل فى أداء وظيفته فى الإرشاد. وناهيك عن أنها ولاية شرعية ووظيفة دينية فالفاسق لا يجوز له أن يلى شيئا من أمور المسلمين، فلا يكون إماما ولا قاضيا ولا شاهدا، ولا يتم تقديمه للصلاة.

وإن لذوى الأخلاق الفاضلة منزلة عالية وفى الحديث الصحيح أن أكمل المؤمنين إيمانا أحسنهم أخلاقا. والرسول الكريم يبشر المؤمنين «إن من أحبكم إلى وأقربكم منى مجلسا يوم القيامة أحاسنكم أخلاقا» فحسن الخلق هو أفضل الأعمال وأبرها.

آداب الداعى الكمالية

أن يتحلى الداعى بالورع فى اتقاء الشبهات وينأى بنفسه عن مواضع الريبة ومسالك التهم فذلك أبرأ لدينه وأسلم لعرضه وأدعى إلى الانقياد له بعد الإقبال عليه، حيث تأثير المال أكبر من تأثير المقال، وهكذا رأينا فى أحوال الداعية الأعظم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وعرفنا نهلك فى سيرة السلف الصالح من الصحابة والتابعين والهداة المرشدين رضى الله عنهم أجمعين ومنها التخلق بالخلال الحميدة والشيم العظيمة التى أرشد إليها الشرع الحنيف وحث الناس على التخلق والتحلى بها كالسخاء والجود والمروءة ونظافة البدن والحفاظ على جلال مظهر العلماء وطلعة الكرماء وكل ما يعيد ويسهل بلوغ الغاية من الدعوة إلى الله تعالى، والتعلم أن التهاون فى هذا يقلل من الثقة فى الداعية ويصرف المدعوين عنه.

وللمؤمنين فى رسولهم العظيم أسوة حسنة وهو كما وصفه رب العزة فى سورة القلم «وإنكَ لعلَى خُلق عظَيم»، وكما قدمه سبحانه وتعالى للأمم التالية عليه فى سورة الأحزاب «لقَد كاَن لكُم فى رسول الله أسوةً حسنةً» وهى شهادات من رب العزة

على صاحب أكمل وأرفع وأتم أخلاق وهو المبعوث، ليتمم المكارم ويقدم الأسوة الحسنة والنموذج الذى يجب أن يحتذيه الطامحون إلى الكمال البشرى.

وإذا ما تمثل الداعى هذه الأخلاق المحمدية وسعى إلى التخلق بصفاتها فقد سهل عليه أن يخرج النـاس من ظلمات الليل إلى أنـوار العلم وينقذهم من ذل المعصية إلى عز الطاعة وداوى قلوبهم وهذب نفوسهم بما أوتى من مهارة وحكمة، وأمكنه أن يحول بين الأمة ورذائل الأخلاق بسور منيع لبناته الزواجر والنصائح وهيكله الترغيـب والترهيب، ويقينا لو كان المرشـد على ما وصفنا لصار ملـكا مطاعا يرجع الخلق كلهم إليه فيقتدون به ويهتدون بهديه وأن يسـتولى على القلوب ويصرفها تجاه الحق وفى ذلك كفاية، والله يقول الحق وهو يهدى السبيل.

آداب الداعية مع المدعو

آداب الداعى مـع المدعو كثيرة أهمها وأعلاها عدم المجاهرة بالتوبيـخ وأن يصرف الداعية المدعـو إلى الفضيلة بالتلويح وليس التصريـح فـى المقال، فإن يبدو الكلام أنـه يأتى عرضا خير من أن يتـم التصريح به وهو فى الحالة الأولى أوقع فى النفس وأعظم تأثـيرا فى القلب وادعى إلى التنبيه فى الخطأ مع مراعاة حرص المخاطب بترك المجاهرة بالتوبيخ والتقريع الشديد العنيف الذى يعطـى الطرف الآخـر أو المدعو جرأة علـى رد الهجمة بهجمة مثلها أو يهيج شـعوره فيحرص على الإصرار على الخطأ والبقاء على ما تم لوحه عليه لاسـيما إذا كانت نفس المدعو تنطوى على الكبر أو الغشم.

وعلى الداعى ثانيا أن يملك من الفراسـة ما يقوده إلى حسـن التقدير لحال المدعوين فلا يحملهم أكثر ما يستطيعون أو يتحملون ويمسك عما لا يطيقون، ويوجز إذا أحس ملل السامعين أو خشى انصرافهم عنه.

وفـى الأثـر أن العبد الصـالح الخضر قال لنبى الله موسـى عليهما السـلام: «يا طالب العلم إن القائل أقل ملالة من المستمع

فلا تمل جلساءك إذا حدثتهم يا موسى واعلم أن قلبك وعاء فانظر ما تحشوه في وعائك».

وفي الأثر أيضا أن ابن السماك جلس يوما للوعظ وجارته تسمع كلامه فقال لها: كيف سمعت كلامي ؟! فقالت: هو حسن لولا إنك تردده، فقال: أردده كي يفهمه من لم يفهمه، فقالت: إلى أن يفهمه من لم يفهمه يمله من فهمه.

والمقصود من القول إن خير المرشدين الفطن الذى لا يقل ولا يمل.

وإذا كان في الوعظ ما يجرح إحساس الموعوظ أو حرجا يحمله على النفور من سماع الوعاظ أو الاستنكاف من قبوله، فقد فشل الداعي في مهمته والصواب أن يلتمس الداعي الحكمة فيذكر ما في المخاطب من فضل وماله من منزلة ثم يرشده إلى الخير ويحذره من الشر ليحمله ذلك على التخلى عما هو فيه من ضلال وشقاء وتقبل نفسه على التحلى بما يدعوه إليه من هدى ورشاد، كما يقبل الجريح على من يضمد جراحه ويسكن آلامه وينقذه من تعب المرض إلى راحة السلامة إلى هذا يدعو رب العزة كما جاء في قرآنه الحكيم ورسالة نبيه العظيم التى ما ابتغت إلا الهدى والرحمة للمؤمنين.

□□□

obeikandl.com

الخاتمـة

فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلّم

بقلم الكاتب الصحفى / عاطف عبدالغنى

فداك أبى وأمى يارسول الله.. وهل يكفى أن أفتديك بكلام فمى، وفؤادى مشغول عن نصرتك بسفاسف الدنيا وسقط متاعها ؟!.. وما نصرتك إلا نصرة لذاتى، وما أنت بحاجة لنصرة بشر وقد كفاك رب العباد وكرّمك ورفع ذكرك حتى قرن الإقرار بوحدانيته سبحانه وتعالى بالشهادة لرسوليتك وجعلهما شرطا للإسلام، وأنعم الله تعالى عليك وأنعم بِك، وهداك وهدى بك، ورفعك ورفع بك، ورحمك ورحم بك؛ رحمة من الله تعالى للعالمين، ونعمة لِلناسِ أجمعين، وهداية ورفعة للمؤمنين؛ الذين عُرفوا بِك، ونُسبوا إِليك، فَقيل: أُمة الأُميِّينَ، وأُمة النبى الأمى وأُمة محمدٍ، صلى الله عليك وسلم.

وفى هذا الزمن المستضعفة فيه أمة محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا التاريخ شهر سبتمبر من عام ٢٠١٢ وقد تفجرت ثورة

المسلمين فى بقاع الأرض غيرة وغضبا نبيلين جراء ما تعرضت له سيرة رسولهم الكريم، من تطاول الموتورين الذين تحركهم نوازع كراهية الإسلام والمسلمين.. هذه الغيرة وهذا الغضب اللذان قادا تحركات البسطاء والعوام وبلغا بالبعض منهم حد الاستعداد بالتضحية الجسدية، وبذل الروح – وهى أغلى ما يملكه الإنسان – ليعلن عن موقفه تجاه الإساءة لنبيه، ونصرته ضد أعدائه، أعداء الدين، بقدر هذه الغضبة جاءت على العكس ردود أفعال مؤسسات وهيئات رسمية ودينية وطنية وقومية وأممية إسلامية، ألجمها الصمت تجاه هذه الإساءة الموجهة لسيرة نبى الإسلام، وما سبقها من إساءات كانت فيها أيضا ردود الأفعال صادمة ومخيبة لكل التوقعات، ولا يدانيها فى الوصف إلا الغياب الدائم لمن يعدون أنفسهم صفوة ونخب المجتمعات الإسلامية وقادة رأيه وفكره، المحكومين بمواءمات المصالح والسياسة والمكاسب الشخصية وهوانهم على الناس.

فى هذا المناخ الحزين طلب منى أن أكتب هذه الخاتمة عن هذا المؤلف القيم الذى يحمل عنوانا وصفيا يكشف جانبا من جوانب العظمة فى شخصية محمد رسول الإسلام معلم الأجيال، والعنوان هو: «أعظم الدعاة».

ومن العنوان إلى المحتوى صادفت اجتهادا رائعا يستحق الإجازة العلمية التى حصل عليها الموضوع ومعالجته، وبعد أن انتهيت من القراءة سألت نفسى: ماذا يمكن أن أضيف فى الموضوع إلى نتاج اجتهاد الشيخ الجليل العالم الدكتور عبدالسلام جاد بسيونى الذى استخرج من كتاب الله وسيرة رسوله صلى الله عليه وسلم هذا المؤلف القيم ليفيد به المسلمين والإسلام وقضيتهم العادلة التى فشلوا لوقت كبير من تاريخهم فى تقديمها للإنسانية المعذبة بالبحث عن المثال والمآل؟!.. المثال الذى يقتدى به البشر فى الدنيا، والمآل الذى هم حتما منتهون إليه بعد الموت.

سألت وانشغلت كثيرا بالسؤال إلى أن هدانى الله إلى أن أسقط جانبا من جوانب هذه العظمة على الواقع المتردى الآن لأمة الإسلام، حيث يتحقق فيها ما أخبرنا عنه الرسول قبل أربعة عشر قرنا حين قال صلى الله عليه وسلم: «توشك أن تداعى عليكم الأمم كما تداعى الأكلة إلى قصعتها، قيل أوَمن قلة نحن يومئذ؟ قال بل أنتم كثير ولكن كغثاء السيل، ويوشك الله أن ينزعن المهابة من صدور أعدائكم وأن يقذف فى قلوبكم الوهن... الحديث».

وما أشبه الليلة بالبارحة كما يقولون، ما أشبه حال المسلمين بحال قريش وما حولها من العرب يوم ابتعاث محمد

صلى الله وسلم فيهم هاديا ومعلما وقائدا، وكانت العرب قبل محمد صلى الله عليه وسلم أمة لا شأن لها، ولا أهمية لقبائلها، ولا لجماعتها، فلما جاء محمد صلى الله عليه وسلم بعث هذه الأمة بعثا جديدا يصح أن يكون أقرب إلى المعجزات. فغلبت العالم، وحكمت فيه آجالا وآجالا.. كما تقول الليدى إيفلين كوبلد Lady Evelyn Cobbold ابنة العائلة البريطانية الأرستقراطية التى أسلمت، فى كتابها (البحث عن الله)، أو كما يقول الباحث الروسى آرلونوف: «الأعمال العظيمة التى قام بها محمد – صلى الله عليه وسلم – تدل على أنه من المصلحين العظام، وعلى أن فى نفسه قوة فوق قوة البشر. فقد كان ذا فكر نير، وبصيرة وقيادة، واشتهر بدماثة الأخلاق، ولين العريكة، والتواضع وحسن المعاملة مع الناس»، قضى محمد صلى الله عليه وسلم أربعين سنة مع الناس بسلام وطمأنينة، وكان جميع أقاربه يحبونه حبا جما، وأهل مدينته يحترمونه احتراما عظيما، لما عليه من المبادئ القويمة، والأخلاق الكريمة، وشرف النفس، والنزاهة، أو كما قالت السيدة عائشة رضى الله عنها وأرضاها عندما سئلت عن أخلاق النبى فأجابت: «كان خلقه القرآن» فجاء وصفها عبارة جامعة مانعة تلخص فى كلمات ثلاث

ما تعجز عنه مجلدات من الوصف، محمد صلى الله عليه وسلم قرآن يمشى على الأرض، عقله يشبه القرآن فى نسقه، قلبه يشبه القرآن فى آيات رحمته، وكلامه غير الموحى به يشبه القرآن فى إعجازه وهديه، وغايته فى الدنيا تشبه القرآن فى دعوته إلى سبيل الله.

هى إذن الدعوة التى تحمل فى طياتها الرسالة.. رسالة الحق إلى الخلق، الرسالة الخاتمة والشريعة الكاملة المكتملة.. «اليوم أكملت لكم دينكم»، قالها محمد صلى الله عليه وسلم فى حجة الوداع وتركها أمانة فى أمته إلى يوم الدين، قالها بعد أن أتم دعوته التى وقف حياته فى سبيل إيصالها، وأوذى فى سبيلها جسديا ومعنويا قبل أن ينتقل إلى جوار ربه راضيا مرضيا، ونأتى اليوم نحن – المسلمين – فنضيّع الأمانة ونخون أنفسنا.. أى ذنب نقترفه؟.. وما السبيل للإصلاح؟

أما الذنب فهو عظيم وأما السبيل للإصلاح فهو واضح جلى، أن نتأسى برسولنا الكريم فى خلقه وطباعه، فى عمله وكلامه، وأن ندعو الناس إلى رسالته، ولن تنجح دعوتنا إلا أن نستلهم المنهج والطريق والمراحل التى قطعها أعظم الدعاة الرسول محمد صلى الله عليه وسلم، وهذا واجب على كل مسلم يبغى الترقى

والارتقاء فى دنياه، فإذا ما تصدى المسلم الفرد لمهمة الدعوة ووظيفتها صار الواجب فرض عين على الداعية أن يأتيه ليتربى ويتأدب فى مدرسة محمد صلى الله عليه وسلم، وأعظم بها من مدرسة ينبغى أن نتحراها فى زمن يضيع فيه العلم وتندر الأخلاق.

ومن هنا تأتى أهمية هذه الدروس المكثفة عن أعظم الدعاة محمد صلى الله عليه وسلم.. جمعها وأصّلها ورتّبها ترتيبا بديعا د.عبدالسلام جاد بسيونى وهو داعية إسلامى يرفع منذ زمن ليس بقليل راية الدعوة إلى الإسلام فى بلاد القارة الإفريقية التى ذهب إليها منذ سنوات طويلة، اختار أن يعيش هذه السنوات فى سبيل الدعوة لدين الله مغتربا عن وطنه ومسقط رأسه مصر وأهله وعشيرته الأقربين.

وتأتى أيضا أهمية هذه الدروس فى أنها ليست موجهة فقط لمن يريد أن يتصدى لمهمة الدعوة للإسلام والخطابة فى المسلمين وفى غيرهم من الملل والنحل، بل هى تخاطب فى لغة سهلة العامة ممن يريد أن يعرف ملمحا من ملامح رسول الإسلام وعظمته، ولا ينبغى أن نقرأ نحن المسلمين تحديدا هذه الكلمات والجمل لمجرد الاطلاع على سيرة النبى صلى الله عليه وسلم، ولكن للتأسى بها والعمل والاسترشاد بهدى السيرة وصاحبها.

هذا ما أعرفه وما أردت أن أنقله إليكم إخوتى فى الإنسانية وفى الإسلام، جزى الله د.عبدالسلام جاد بسيونى خيرا على عمله الذى أثرى به المكتبة الإسلامية والعربية، وجزانا وإياكم جزاء الفهم والعمل بهدى نبيه وهدى ما جاء فى هذا المؤلف من قبس دعوته، وجزى الشدائد خيرا، إذ جعلتنا نرتاح قليلا مع الفطرة السليمة قبل أن تلوثنا السياسة.. جعلها الله فى ميزان حسناتك ياشيخ.. اللهم آمين.

❑❑❑

obeikandl.com

obeikandl.com

الفهرس

تقديم بقلم د. سالم محمود عبد الجليل..... ٣
القرآن وأسلوب الدعوة فى مكة والمدينة بقلم د. محمد وهدان..... ١٤
محمد صلى الله عليه وسلم أعظم الدعاة..... ٢٣
١- دعوة الأنبياء ودعوة العلماء..... ٢٤
٢- تحديد الهدف والتعرف على مجتمع الدعوة..... ٣٢
٣- التعرف على طبيعة المجتمع..... ٣٥
٤- تربية القيادة على المستوى الفكرى..... ٣٧
٥- العرض الواضح..... ٤٤
٦- الاستقطاب حول الدعوة..... ٤٨
٧- مطابقة السلوك للمبادىء..... ٥٠
٨- الصبر..... ٥٣
٩- العلم بالقرآن..... ٥٦
١٠- العمل والحلم..... ٥٨
١١- الشجاعة والعفة والقناعة..... ٦٠
١٢- قوة البيان وفصاحة اللسان..... ٦٣
١٣- التحصين بالعلم المجتمعى..... ٦٥

obeikandl.com

١٤ – قوة الثقة بالله..... ٦٩
١٥ – التواضع ٧١
١٦ – عدم البخل بالعلم..... ٧٣
١٧ – الوقار والرزانة وضبط اللسان..... ٧٦
١٨ – علو النفس والصبر..... ٧٨
١٩ – التقوى والأمانة والتحرز بطاعة الله..... ٨٠
آداب الداعى الكمالية..... ٨٢
آداب الداعية مع المدعو..... ٨٤
الخاتمة بقلم أ. عاطف عبد الغنى..... ٨٦

رقم الإيداع	٢٠١٣ / ١٦٢٨٢
الترقيم الدولى	ISBN 978-977-02-7863-5

١ / ٢٠١٣ / ٥٦

طبع بمطابع دار المعارف (ج.م.ع)